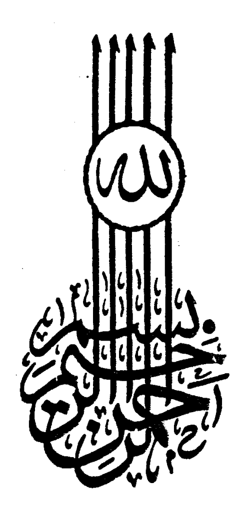
السعودية والملك عبد العزيز في عيون المصريين

د. محمد عبد الله عرفة د. عبد الحليم عويس



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم معالى الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى
رئيس رابطة الجامعات الإسلامية

عبد العزيز رجل الثوابت والمنهج الواضح :

فى علاقاته ــ بصفة عامة ــ انطلق الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله من ثوابت ، ولم يتحرك عشوائياً تميل به رياح السياسة هنا ،وعواصف المصلحة العاجلة هناك ، وربما المصلحة الموهومة التى تؤدى إلى نفع شخصى ــ كما رأينا على الساحة الإسلامية ــ وتنتهى باستلاب لبعض مقومات الأمة ، من دين أو لغة أو حضارة ، وربما تنتهى بتضليل مسيرة الأمة .

ونستطيع ــ بيقين ــ أن نعزُو نجاح الملك عبد العزيز وأبنائه فى سياساتهم إلى وجود هذه الثوابت .

ويضاف إلى هذا أن الملك عبد العزيز وأبناءه يملكون رؤية واضحة عن حقائق الأشياء ؛ فلا يخدعون أنفسهم ، ولا يتصورون من الذئب أن يتخلى عن طبيعته فيتحول إلى حمل وديع ، كما لا يتصورون من الأعداء أن يتخلوا عن مصالحهم ومخططاتهم الاستراتيجية ، بمجرد كلمات عاطفية وخطب ودية كما يتخيل بعض الزعماء . . . فالعدو عندهم عدو ، والصديق صديق ، وكما لا يعنى أن يعامل العدو بطريقة خاطئة ، بل يجب أن يعامل بكل الحلم والأناة ، فلعله أن يكون عدوا عاقلا فيعود إلى رشده ــ فكذلك لا يعامل الصديق بنوع من الاستسلام والغفلة والتبعية التى قد تقود السفينة كلها للهلاك ، ولاسيما أن النصف الأول من القرن العشرين الميلادى (الرابع عشر للهجرة) كان يشد بعض الحكام العرب المسلمين إلى تيارات مذهبية (أيدلوجيات) شرقية وغربية ، شيوعية وتغريبية ، وقومية تتنكر للإسلام ، بل وتعتبر دعاته أعداء ، وهى إن تواضعت قبلت الإسلام

رافدا من الروافد ، ومرحلة من المراحل، أما الإسلام الذى يمثل دينا وحضارة إنسانية ربانية قادت البشرية عشرة قرون وحولت مجرى التاريخ البشرى ، فذلك أمر منكور مجحود ، وأما صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وعالميته ، ورحمته للعالمين ، فتلك دعوى رآها أصحاب المذاهب والتيارات الزاحفة تطرفاً وتسييسًا للدين ، وعمالة للغرب الذى يريد ضرب الحركات التقدمية ، ويريد إجهاض البعث العربى القومى الاشتراكى (!!!) مع أنه ــ كما أثبتت الأحداث ــ لم يكن هناك من يحقق كل آمال الاستعمار ــ بل وما فوق آماله ــ أفضل من هذه الحركات التى بددت طاقة الأمة ، ومزَّقت وحدتَها ، وعلّمتها الذل فى أبشع معتقلات عرفها التاريخ !!

كان الملك عبد العزيز رحمه الله واعيا بكل ماحوله ومن حوله ، معتمدا على الله ثم على ثوابت دينه وحضارته ؛ فلم يخدعه العدو عن نفسه ، وإنْ تعاون معه فيما يعتقد أنه نافع له ولقومه ولحضارته ، ضرورى لإقامة علاقات دولية تظهر تسامح الإسلام وروح الإسلام الودود !!

ــ كذلك لم يخدعه الصديق عن نفسه ، وهو البصير بما وراء الأحداث والمواقع ، وهو الذى زودته ثوابته (الدينية الحضارية) بنور يغربل به الأفكار والمواقف ، ويعرف به الصحيح من الزائف ، والحق من الباطل .

ــ ومع ذلك كان ينأى بنفسه أن يدخل فى مهاترات أو مساجلات ، وإنما يهدف إلى آماله بأيسر الطرق ، وأفضل الوسائل ، وأقلها مؤونة وتكلفة .

* * *

وعندما نتحدث عن الملك عبد العزيز فى عيون المصريين وعن نظرة المصريين لدولته الكبيرة الناشئة وتجربته الفذّة ، فإن علينا أن نعلم أنَّ تفاعل كثير من المصريين مع الملك عبد العزيز وتجربته ، إنما كان إعجاباً بهذا المنهج الذى اختطه عبد العزيز فى محيط كان بالغ التعقيد ، وفى فترة كان العالم فيها يهيأ لسيطرة شيوعية رأسمالية ، لامكان للدين فيه بعامّة ، ولا للإسلام بخاصّة .

ــ فكيف يأتى الملك عبد العزيز ليتعامل مع الإسلام بكل هذا الانتماء الواضح وليرتبط بالإسلام ارتباطا لا انهزامية فيه ؟ !

ـ لقد كان هذا منطلق الإعجاب الأول بعبد العزيز وتجربته التى لم تتنكر يوما لارتباطها بالإسلام الصحيح ، والتى لم تفتأ تدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة .

سياسة عبد العزيز الإسلامية والعربية :

لم يكن عجباً ـ بل كان طبيعيًا ـ وهذا شأن الملك عبد العزيز رجل الثوابت الذى يظهر فى كل يوم ولاءه للإسلام وحضارته ـ أن يولى عبد العزيز العالمْين العربى والإسلامى اهتماما خاصا، وأن يقف مع كل الآلام التى تحيط بالعرب والمسلمين ، وأن تحتلّ القضايا ذات الأهمية مثل قضية فلسطين اهتماما يليق بمستوى التحدى الذى تمثله . . .

وفى حدود إمكاناته وقدراته والمشكلات الداخلية فى طور التأسيس التى كانت تحدّ من أن يعطى ما يريد أن يعطى . . . فى حدود هذا أعطى الملك عبد العزيز ما يستطيع ، ومدّ يده لكل المسلمين ، وأرسل الرسل والدعاة ، وتوسّم قدرات خاصة فى بعض أبنائه فجندهم للعمل الخارجى والعمل الإسلامى والعربى بصفة أخص ، ودعا إلى المملكة كثيرين ليضع يده فى أيديهم ، ويحاورهم ، ويكلّمهم عن رؤيته للحاضر والمستقبل .

ـ وكان اهتمامه بمصر ـ وهى مناط هذا الكتاب ـ جزءاً من هذه السياسة ، ولاسيما وهو يعرف مكانة مصر ، وإمكانات مصر ، وسبق مصر فى التعامل مع الحضارة الغربية ، وإدراكه أيضا بأنه لو وقع تعاون كامل وتنسيق تام بين المملكة العربية السعودية ومصر لكان فى ذلك خير كثير للعرب والمسلمين .

فمصر نموذج لعلاقات الملك عبد العزيز بالمحيطين العربى والإسلامى ، وهى نموذج أقوى؛ نظراً لأهمية مصر ، لكنها ـ مع ذلك ـ الدليل ـ من جملة أدلة أخرى ـ عن السياسة الثابتة للمملكة العربية السعودية تجاه دائرتها الأساسية . . . دائرة الإسلام والعروبة .

* * *

كانت سياسة الملك عبد العزيز ـ فى المحيط العربى ـ تقوم على تأييد كامل للقضايا العربية ، وقد تجلّى ذلك فى تأييده ومناصرته لعرب فلسطين فى مواجهة

المؤامرات الصهيونية ، وسماح بريطانيا بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتأييد الولايات المتحدة للأطماع الصهيونية ، وفى تأييده للشعب السورى ضد الاحتلال الفرنسى لتحقيق المطالب العربية المشروعة ، إلى جانب تأييده مصر فى كفاح شعبها ضد الوجود البريطانى فى أراضيها . . . وفى ذلك يقول الملك عبد العزيز :

« يهمنا أمر إخواننا السوريين وأمر إخواننا الفلسطينيين وأمر إخواننا العراقيين ، وأمر إخوننا المصريين . . . تهمنا حالهم ويهمنا أمرهم ويزعجنا كل أمر يدخل عليهم منه ذل أو خذلان لأننا ما نرى إلا أنهم منا ونحن منهم ، كما تهمنا جميع بلاد المسلمين ، إننى أخاطب إخواننا فى مصر والعراق وسورية وفلسطين ، فأقول لهم : إن المصلحة واحدة والنفوس واحدة » .

* * *

وبحكم أهمية العلاقات المصرية السعودية ، فإننا نفرد لهذه العلاقات حيزاً خاصاً ، فلقد زار الملك عبد العزيز مصر مرتين :

الأولى : قابل خلالها الرئيس الأمريكى « فرانكلين روزفلت » فى البحيرات المرة ، وقابل فيها أيضا مستر « ونستون تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا بالفيوم فى شهر فبراير ١٩٤٥م ، والمرة الثانية : زيارة رسمية لمصر فى يناير ١٩٤٦ م .

ولندع الملك عبد العزيز رحمه الله يتحدث عن زيارته لمصر بقوله :

« أحمد الله إذ أعود إليكم من بلاد هى بلادى وبلادكم ، مصر العزيزة ، بعد أن لاقيت فيها من جلالة الملك فاروق وحكومته وشعبه فى كل شبر مشيت فيه من أرض الكنانة من الحفاوة والإكرام ما لا يحيط به الوصف ، ولا يفى بحقه وافر الشكر » .

وماكنا لننسى مصر الكريمة ، وصِلاتها بشقيقتها العربية السعودية ، فكان من حظ البلدين توثيق الروابط بينهما وتوحيد جهودهما فى سياستهما ،وإقامة التعاون بينهما على أثبت الدعائم .

« إنه لمن سعد الطالع لنا جميعا أن الشعور العربى المشترك بيننا هو شعور عام اشتركنا فيه مع إخواننا ملوك العرب وأمرائهم ورؤسائهم ، كما اشترك معنا فى شعورنا كل مسلم وكل عربى ، وما جامعة الدول العربية التى أسست فى عاصمة

مصر بفضل الله ثم بفضل جهود إخواننا ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم إلا أثر لهذه الروح العربية ، التى تربط بيننا وتؤلف بين قلوبنا جميعا .

كلانا والحمد لله موقن بأن القوة فى وحدة الكلمة ، وأن الأخ درع أخيه ، وأن تآخينا من شأنه أن يوثق العرى بين شعوبنا ، ما يشك أحدنا فى أن مصلحة البلدين تقضى بوحدة اتجاههما السياسى ، ووحدة السبيل الذى يسلكانه فى منهاجهما الدولى . ذلك مبدؤنا ، ومبدأ شعبنا يتوارثه الأبناء عن الآباء ويبقى إن شاء الله على وجه الدهر بهذه الروح .

إن الصلات التى تربط بين شعبينا قد وثقها الله وأيدها التعاون فى سبيل تحقيق مجد العروبة .

ومن فضل الله علينا جميعا أن كانت كلمتنا فى هذه الزيارة والتى قبلها مجتمعة على مواصلة جهودها فى سبيل تأييد جامعة الدول العربية ، وبذل كل مرتخص وغال فى تأييد التضامن بين سائر دول الجامعة بالقلب والروح لما فيه الخير لدول الجامعة ماحيينا ، وسنورثها بنينا حتى يظل العربى يشعر فى كل وطن يمر به من بلاد العرب أنه يسير فى موطنه ، ويعتز به فى وطنه وبلاده » .

« إن جيش مصر وحضارتها جند للعرب وركن من أركان حضارتهم » .

* * *

وقد جاءت هذه الزيارات الودّية المتبادلة مستندة إلى ما بين البلدين من صلات أخوية فى إطار العروبة والإسلام ، وقد دعمتها معاهدة عام ١٩٣٦م بين المملكة العربية السعودية ومصر .

لقد أعلنت المملكة العربية السعودية فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٣٢ م تطلع عبد العزيز آل سعود إلى مصر الشقيقة الكبرى لكى تعلن اعترافها بالاسم الجديد لدولته . وكان الملك عبد العزيز عندما تم له استكمال وحدة المملكة بضم الحجاز وعسير تفرغ لبناء الدولة ورسم علاقاتها مع الدول العربية والإسلامية ، ففى المجال الداخلى اهتم بالتعليم والزراعة واستغلال المصادر المعدنية ، وفى المجال الخارجى أبرم عدة معاهدات للصداقة وحسن الجوار مع كل من تركيا وإيران عام ١٩٢٩م ، ومع العراق عام ١٩٣٠م ، ومع شرق الأردن عام ١٩٣٣م ، ومع

اليمن عام ١٩٣٤م ، ثم مع مصر عام ١٩٣٦م ــ كما سبق أن ذكرنا .

جاء تطلع الملك عبد العزيز إلى مصر متفقا مع ما بين البلدين من أواصر الأخوة العربية الإسلامية ، ولذلك كان كثيراً ما يوصى رجاله بالحجاج المصريين قائلاً : إخواننا سهلوا لهم ولا تكدروا خواطرهم .

كما أنه رحّب بتقوية العلاقات الاقتصادية بين مصر والمملكة العربية السعودية ، حيث استقبل الاقتصادى الكبير محمد طلعت حرب وناقش معه فكرة قيام مشروعات مشتركة بين مصر والمملكة ، مثل ربط ميناء السويس بميناء جدة بخط ملاحى مشترك .

كما رحب الملك عبد العزيز بإعلان حزب الوفد المصرى بأن العلاقات الطيبة بين المملكة ومصر هى من مصلحة الطرفين . إلى جانب نشاط الشيخ رشيد رضا ومجلة المنار التى كانت تصدر فى القاهرة ، وقامت بدور إيجابى فى نشر مبادئ دعوة الإصلاح السلفى ، وتقوية العلاقات بين المملكة ومصر ، بالإضافة إلى تعاطف على ماهر رئيس الوزراء الذى خلفه مصطفى النحاس عام ١٩٣٦م فى رئاسة الوزارة مع فكرة تقوية العلاقات المصرية السعودية، وهما اللذان شاركا فى ترسيخ قواعد الأخوة والصداقة بين القطرين الشقيقين حتى عقدت معاهدة ١٩٣٦م .

كان عقد معاهدة عام ١٩٣٦ م (١٦ صفر عام ١٣٥٥هـ الموافق ٧ مايو عام ١٩٣٦م) تتويجاً لروح الأخوة العربية والإسلامية بين القطرين الشقيقين ، وقد شارك فى وضعها صاحب السعادة فؤاد حمزة بك وكيل وزارة الخارجية فى المملكة العربية السعودية ، وصاحب الدولة على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الخارجية المصرية .

* * *

وأيًا كان ما يقوله التاريخ الحديث والمعاصر حول جهود الملك عبد العزيز فى التكامل مع مصر، وفى حل المشكلات المترسبة بتأثير بعض التقاليد والعادات بطريقة كريمة ، فمما لا شك فيه أن الرجل بذل كل جهوده ، وأنه لقى استجابة سياسية فى المستويات العليا بدرجة كبيرة . . . أما الاستجابة فى المستويات الحضارية التى مثلها الشعب المصرى فكانت أقوى وأعمق .

بمفكريه وأدبائه وعلمائه وجمهرة مثقفيه ـ تفاعل الشعب المصرى مع الملك عبد العزيز تفاعلا إيجابيا رائعا . . .

ـ فمنذ وقت مبكّر فى حياة الملك عبد العزيز شعر الشعب المصرى ـ قبل أن يزوره الملك عبد العزيز فى مصر وبعدها ـ أنه أمـام شخصية إسلامية غـير عـادية . . .

ـ لقد شعر هذا الشعب بحسّه التاريخى ووعيه الحضارى . . . وهو شعب حطين وعين جالوت ـ أن الملك عبد العزيز يعيد إليه ذكريات الأمجاد الخالية التى كان الشعب المصرى والعربى يجد فيها ضالته ،وهو يلتف حول قائد أصيل منتمٍ ، له أهداف سامية تخدم أمته وشعبه ودينه !!

ـ أحسَّ الشعب المصرى أن هذا الملك الشاب لا يسعى لبناء ملك ينكفئ عليه ، تنحسر إشعاعاته الحضارية والفكرية العقدية عند حدوده الجغرافية ، بل ـ على العكس من ذلك ـ اتجه الوعى المصرى إلى إدراك حقيقة هذا القائد الذى لا يخفى إسلامه وانتماءه إلى الحضارة العربية الإسلامية ، ولا يترك فرصةً تمضى دون أن يمدّ فيها يده لإخوانه العرب داعيا إياهم إلى التعاون على البر والتقوى ، مساندا ـ بالقول والفعل ـ كل قضاياهم ، قادراً على طرح القضايا العربية والإسلامية فى المحافل الدولية بأسلوب قوى ، واضحاً فى رؤيته لمفردات التحدى وأساليب المواجهة ، يخاطب الشعوب أكثر مما يخاطب الحكام ، ويسعى إلى تبصير الأمة بحقيقة دينها مركِّزا على أنّ الإسلام هو طريق النهضة ، وأن العرب هم طليعة المسلمين ، وأن لمصر مكانة خاصة بين العرب . . . إنها البلد الأكثر عدداً ، والأسبق فى الالتحام الثقافى المعاصر . . . وهى بلد الأزهر . . . وهى البلد الذى أنقذ الحضارة الإسلامية والإنسانية فى معركتى حطين وعين جالوت ضد البربرية الصليبية والترية .

ومثل هذا القائد الواعى بطبائع الشعوب جدير بأن ترقب الشعوب خطواته ، وبأن تحنو على أحلامه وطموحاته .

ـ ومن هذا المنطلق كان الشعب المصرى يتابع مواقف الملك عبد العزيز فى

مواجهة المعادلات الدولية، وقدرته على بناء دولة موحدة تكون قادرة على مواجهة القوى العالمية المتربصة بالعرب والمسلمين ، الرافضة لكل صورة من صور التوحد العربى والإسلامى ، والعاملة بكل قوتها على نشر التجزئة والتخلف بينهم . . .

وكان عبد العزيز قائداً ذكيا ،يعرف كيف يتجاوب مع الشعوب ، وكيف يحرك طاقاتها وقدراتها ، ويتجه بها صوب أهدافها ، محركا طاقاتها العقلية والعاطفية ، مستنهضا هممها بطريقة إيجابية لا تعتمد على الثرثرة أو الانفعالية أو الغوغائية كما كان يفعل كثير من أبطال الشعارات ، بل تعتمد على الخطاب العقلى الواقعى ، على تحريك الانتماء لثوابت الأمة وأهدافها التى لا تنفصل عنها !!

* * *

ومن هنا انبرى للحديث عن عبد العزيز وأمجاده صفوة من المصريين المثقفين المنتمين على رأسهم الشيخ رشيد رضا صاحب (مجلة المنار) ، والكاتب الأستاذ عباس محمود العقاد ،الأديب الصحفى محمد حسين هيكل وعشرات غيرهم . . .

لقد تعاطف المصريون مع توحيد المملكة العربية السعودية التى تضم نجداً وملحقاتها والحجاز .

لقد كان الشعب المصرى ، وكانت الحكومة المصرية فى حالة تفاعل إيجابى تام مع الملك عبد العزيز وخطواته المباركة ؛ ولهذا استجابت فوراً لطلبه بإرسال أموال أوقاف الحرمين ولطلبه بالتعاون فى إنقاذ المنكوبين ، وقد امتد التعاطف المصرى إلى الجمعيات الإسلامية فى مصر وعلماء الأزهر الذين أيدوا توحيد المملكة وضم الحجاز . . .

وقد ظهر ذلك واضحا فى سفر وفد مصرى فى سبتمبر ١٩٢٥م برئاسة الشيخ محمد مصطفى المراغى رئيس المحكمة الشرعية العليا ، حيث وجد ترحيبا من السلطان عبد العزيز ، كما سافر وفد مصرى آخر عام ١٩٢٦م برئاسة الشيخ محمد ماضى أبى العزايم رئيس « جماعة الخلافة بوادى النيل » إلى مكة المكرمة لحضور المؤتمر الإسلامى بمكة، رغم موقف التردد الذى اتخذه الملك فؤاد من هذا المؤتمر .

وقد أعلن حزب الوفد المصرى أن العلاقات الطيبة بين المملكة ومصر هى من مصلحة الطرفين ، كما عرض الاقتصادى المصرى الكبير محمد طلعت حرب فكرة

قيام مشروعات مشتركة بين مصر والمملكة العربية السعودية ، هذا إلى جانب جهود الشيخ حافظ وهبه مستشار الملك عبد العزيز وهو من أصل مصرى وله اتصالات بكثير من السياسيين المصريين .

إن للعلاقات السعودية المصرية جذوراً عميقة تحفها وحدة التراث العربى الإسلامى الذى يربط بين الطرفين برباط قوى من الأخوة والمصلحة المشتركة ؛ إذ كانت نفوس المسلمين تهفو إلى الأماكن المقدسة ، وبخاصة بعد أن قامت المملكة العربية السعودية بخدمة الحرمين الشريفين عمارة وتوسعة ، وبعد أن سخر الملك عبد العزيز بن سعود رحمه الله نفسه « لخدمة الحرمين الشريفين » .

إن مبادئ سياسة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود التى حكمت علاقاته بالأقطار العربية الشقيقة وفى مقدمتها مصر ، وبأقطار العالم الأخرى ، إنما هى مبادئ تنطلق من تكوين شخصية هذا القائد العربى المسلم ، القوى الإيمان بربه وبدينه ، والمعتز بحضارته وتراثه !!

* * *

لقد أحبَّ الشعب المصرى الملك عبد العزيز ؛ لأنه رأى فيه امتداداً لعصور الرجال العظماء الذين صنعوا الحضارة الإسلامية . . . هؤلاء الذين لم ييأسوا من رحمة الله ، ولم ينهزموا داخليا بمجرد تفوق الأعداء فى مرحلة من المراحل ، فالأيام دول ،ورحم الله الملك عبد العزيز ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

وإنه ليسرنى ــ بعد أن اطلعت على مواضع من هذين البحثين لأستاذين كريمين قدما فى مؤتمر عقد فى جامعة الزقازيق عن العلاقات السعودية المصرية ووجدت فيما اطلعت عليه تميزاً وجودة فى العرض والاستنتاج ــ أن أقدمهما للقارئ الكريم ، رجاء الاستفادة منهما ، داعياً الله لصاحبيهما الدكتور محمد بن عبد الله عرفة ، والدكتور عبد الحليم عويس بحسن المثوبة ، والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه ، وشاكراً لهما جهدهما ، وبالله التوفيق .

أ . د / عبد الله بن عبد المحسن التركى

رئيس رابطة الجامعات الإسلامية

المبحث الأول

الموقف الإيجابى لعلماء مصر ومفكريها من الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز

الدكتور / محمد بن عبد الله عرفة

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين .

وبعد :

قبل الحديث عن موضوع البحث الرئيس أجد من المستحسن أن ألم إلمامة سريعة ببعض النقاط التى تعتبر تأسيسا للموضوع وربطا له بموضوع : (العلاقات المصرية السعودية من سنة ١٩٠٣ ــ ١٩٥٣م) .

فسأورد لمحة مختصرة عن حقيقة الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية ، وعن جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى إحيائها ، ثم لابد من الإشارة السريعة إلى صلة الدولة السعودية ــ فى أدوارها الثلاثة ــ بهذه الدعوة ،باعتبار أن الموقف من الدعوة السلفية يمثل الموقف من الدولة السعودية لما بينهما من تمازج .

حقيقة الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية :

قال فى لسان العرب : سَلَف يَسْلُف سَلَفا ومسلوفا : تقدم . . . والسَّلَف والسَّليف والسُّلْفة : الجماعة المتقدمون وسَلَفُ الرجلِ آباؤه المتقدمون (١) .

ومن هذا يتضح أن معنى السلف فى اللغة : المتقدمون من الناس فى الأعصر المتقدمة ، وفى اصطلاح علماء التوحيد يطلق لفظ السلف على أولئك الناس الذين التزموا منهجا معينا فى العقائد والتوحيد يتفق مع منهج الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن نهج منهجهم فى هذا .

ومــا كان عليه صحابة رسول الله ﷺ فى هذا يبينه المقريزى فى خططه فيقول : (ومن نظر فى دواوين الحديث النبوى ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن شىء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريم فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ،وسكتوا عن الكلام فى الصفات .

نعم ولا فرَّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا له

---

(١) جمال الدين محمد بن منظور : ٤ / ١٨١ .

تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام . . . وساقوا الكلام سوقا واحدا .

وهكذا أثبتوا رضى الله عنهم ما أطلقه على نفسه الكريم من الصفات مع نفى مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل) [١] .

وبيَّن أبو عثمان الصابوني شيخ نيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ هـ فى رسالة صغيرة له تسمى (عقيدة السلف) بيَّن ما كان عليه التابعون وتابعوهم بإحسان فقال :

أصحاب الحديث ــ حفظ الله أحياءهم ورحم الله أمواتهم ــ يشهدون لله تعالى بالوحدانية ، وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة ، ويعرفون ربهم عز وجل بصفاته التى نطق بها وحيه وتنزيله أو شهد له رسوله بها على ما وردت الأخبار الصحاح به ونقلته الثقات العدول عنه ، ويثبتون له جل جلاله ما أثبته لنفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله ، ولا يعتقدون تشبيها لصفاته بصفات خلقه . . . إلى أن يقول : وكذلك يقولون فى جميع الصفات التى نزل بذكرها القرآن ووردت الأخبار الصحاح [٢] .

إن الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية فى حقيقتها إنما كانت إحياء لتلك العقيدة ، عقيدة السلف المشار إليها ، وتجديدا لما اندثر منها بعد ما طمست معالمها ، وشوهت حقيقتها وران عليها من البدع والخرافات والانحرافات أكداس وأكداس .

وبالنظر فيما ورد عن أئمة هذه الدعوة يتبين أنها لا تعدو كونها إحياء لعقيدة السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ، ومن الأئمة المهتدين ، وتجديدا لما اندثر منها ، وتنقية لها مما علق بها من ألوان الانحرافات .

كتب إمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشيخ محمد بن عبد اللطيف عالم الأحساء خطابا ردا على خطاب جاءه منه يسأله عن حقيقة دعوته ، يقول :(أدعو إلى الله وحده لاشريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله ﷺ التى أوصى بها أول أمته وآخرهم) [٣] .

---

(١) نقلا عن : د . محمد خليل هراس : ابن تيمية السلفى : ٤٨ .
(٢) المكان السابق : ٤٩ .
(٣) رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ٣٦ ، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، بمناسبة أسبوع الشيخ .

ويكتب إليه الشيخ عبد الرحمن السويدى أحد كبار علماء العراق مستفسرا عن دعوته فيرد عليه : (أخبرك أنى والحمد لله متبع ولست بمبتدع ، عقيدتى ودينى الذى أدين لله به ، مذهب أهل السنة والجماعة ، الذى عليه أئمة المسلمين ، مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة) (١) .

وفى رسالة بعث بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام عبد العزيز بن محمد سعود إلى أحمد بن محمد البكيلى صاحب اليمن ردا على خطاب من الأخير يبينان فيها مذهب أتباع الدعوة السلفية فى الفروع فيقولان :

أما ما ذكرتم من حقيقة الاجتهاد فنحن مقلدون للكتاب والسنة وصالح سلف الأمة ، وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة أبى حنيفة النعمان بن ثابت ومالك بن أنس ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى .

ويبسط الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحديث عن حقيقة هذه الدعوة فى رسالة كتبها ووجهها إلى أهل مكة ، بعد استعادة الإمام سعود بن عبد العزيز لها سنة ١٢١٨ هـ ويفصل فيها القول ، وهى جواب لمن سأله عما يعتقدونه فيقول فى تلك الرسالة : إن مذهبنا فى أصول الدين مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقتنا طريقة السلف ، وهى أنا نقرأ آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها ونكل علمها إلى الله مع اعتقاد حقائقها .

ونحن أيضا فى الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ،ولا ننكر على من قلد الأئمة الأربعة دون غيرهم ، ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق ، ولا أحد منا يدعيها إلا فى بعض المسائل إذا صح لنا نص جلى من كتاب أو سنة ، غير منسوخ ولامخصص ولامعارض بأقوى منه ، وقال به أحد الأئمة الأربعة ؛ أخذنا به وتركنا المذهب ، وإن خالف مذهب الحنابلة (٢) .

تلخص مما تقدم أن حقيقة الدعوة السلفية التى أحياها الإمام الشيخ محمد بن

---

(١) رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ٣٦ ، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، بمناسبة أسبوع الشيخ .

(٢) الدرر السنية فى الأجوبة النجدية جمع عبد الرحمن بن قاسم ١ / ٦٣ .

عبد الوهاب فى الجزيرة العربية فى باب العقائد هى وصف الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولاتكييف ولا تمثيل . وإقرار ما ورد من الصفات الإلهية فى القرآن وفى الأحاديث الصحيحة كما ورد ،والتسليم به ،والإيمان بظاهره مع نفى الكيفية .وهذا هو مذهب السلف .

لمحة عن جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى إحياء الدعوة السلفية :

ولد الشيخ سنة ١١١٥ هـ فى بلدة العيينة بنجد وتوفى سنة ١٢٠٦ هـ .

وحتى يتضح مدى جهود الشيخ الموفقة وآثار دعوته المباركة ، يحسن إلقاء نظرة سريعة على ما كان عليه الوضع الدينى فى العالم الإسلامى بعامة ، ومجتمع الجزيرة العربية ونجد بخاصة .

لقد كتب المؤرخون والكتاب الكثير بمختلف اللغات فى وصف العالم الإسلامى وتصوير أوضاعه السياسية والدينية والاجتماعية قبيل ظهور الدعوة السلفية ولعل من أصدق ما يصور تلك الأوضاع ما كتبه المؤرخ الأمريكى لوثروب ستودارد . فقد كتب يصف الحالة الدينية فى العالم الإسلامى قبل ظهور تلك الدعوة على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول :

(فى القرن الثامن عشر الميلادى) (الثانى عشر الهجرى) كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة ، فاربد جوّه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه .. وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفا من الخرافات ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عدد الأدعياء والجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين ، يخرجون من مكان إلى مكان ، يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج إلى قبور الأولياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور .. وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطا بعيد القرار .

وفيما العالم الإسلامى مستغرق فى هجعته ، ومدلج فى ظلمته ، إذا بصوت يدوى من قلب الصحراء شبه الجزيرة — مهد الإسلام — يوقظ المؤمنين ، ويدعوهم إلى الإصلاح والرجوع إلى سواء السبيل والصراط المستقيم ، فكان

الصارخ هذا الصوت إنما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب ، الذى دعا إلى عقيدة أهــل السنة والجـماعـة فامتدت إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامى . . فتبدت تباشير صبح الإصلاح ، ثم بدأت اليقظة الكبرى فى عالم الإسلام (١) .

وفى مقال للدكتور طه حسين نشر فى الهلال المصرية بعنوان :

(الحياة الأدبية فى جزيرة العرب) يصف العصر الذى ظهرت فيه الدعوة السلفية فيقول : (وما كان عصر ابن عبد الوهاب إلا شبيها بهذا العصر جد الشبه (يقصد العصر الذى ظهر فيه الرسول ﷺ) فهو ــ أيضا ــ كان جاهلية مطبقة يمعن فى الغواية والظن ، وينطلق فى أودية الجهالة والرذيلة انطلاق الشهاب لا يقفه ما دام طائرا فى فضاء رحيب واتخذت الأصنام والأوثان ، وذبح لها من دون الله وأوجز ما يقال فيه : إنه عصر انتحار الفضائل الإنسانية والمعانى الرفيعة ، يضاف إليه محو الدين ، والخضوع لسلطان الخرافات والبدع . . .) (٢) .

أما جزيرة العرب فليست بأحسن حالا من بقية أنحاء العالم الإسلامى ، فقد عم الانحراف عن الدين الإسلامى الصحيح جميع أرجاء الجزيرة من شرك وبدع وخرافات ، فبنيت المبانى على الأضرحة واتخذت مزارات يقدس أصحابها ويتقرب إليهم بمختلف أنواع القرب ، واعتقد بالأشجار والأحجار فى جلب النفع ودفع الضر إلى غير ذلك من المنكرات .

وفى نجد منطلق الدعوة الأول كانت الحالة لا تختلف عنها فى العالم الإسلامى وفى شبه الجزيرة العربية .

كان غالب الناس غارقين فى الرجس منهمكين فى الشرك يتبعون ما زينت لهم الأهواء والشياطين ، واستغلق طبعهم وفقدوا إدراكهم وتميزهم حتى اعتقدوا فى الأحجار والأشجار أنها تضر وتنفع،ووهبوها أعمالا يعجز أن يقوم بها الآدميون بل يعجز عنها الأنبياء ، وتمكنت العقائد الوثنية من القلوب بمرور الزمن حتى أن كثيرا

---

(١) ينظر : الهدية السنية : ٥٠ .

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى : ١ / ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ترجمـة عجـاج نويهض ، وإضـافة شكيب أرسلان .

من الناس يعتقدون هذه الخرافات نموذجا صحيحا للدين .

وقد أورد العلامة المؤرخ حسين بن غنام فى كتابه تاريخ نجد المسمى: (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام) تفصيلا لأنواع البدع والخرافات السائدة فى بلاد نجد عند ظهور الدعوة السلفية . كما ذكر ما كانت عليه تلك البلاد من تدهور وتأخر فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وابن غنام معاصر للشيخ محمد بن عبد الوهاب وما ورد فى كتابه عن مشاهدة عيان ومعرفة شخصية .

هذه إلمامة سريعة جدا تصور الحال فى المجتمع الإسلامى بعامة ، وفى مجتمع الجزيرة العربية بخاصة . وهنا ملحظ تجدر الإشارة إليه وهو أن هذه الدعوة السلفية لم تقتصر على تصحيح العقيدة ، وإنما كانت فى الواقع تمثل الإسلام بمفهومه الشامل لكل جوانب الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . . . إلخ ، وإنما برز وغلب جانب العقيدة عليها ؛ لأن الدعوة ركزت على إصلاح العقيدة تركيزا كبيرا وبدأت به قبل أى شىء آخر ، وذلك لإيمان الشيخ وأتباع الدعوة بأن إصلاح العقيدة تأسيس لإصلاح الجوانب الأخرى ومفتاح له ، وأن العقيدة السليمة هى قاعدة الإصلاح لشؤون الحياة .

وانطلقت الدعوة السلفية على يدى مضىء شرارتها وموقد جذوتها الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ، وسط هذا الخضم المتلاطم من ركام الجاهلية المتعاقب ، وكان يهدف فى دعوته إلى تحقيق ما يلى :

١ ــ تنقية العقيدة مما شابها وعلق بها من البدع والخرافات ، وتصحيح مسارها من الانحرافات التى حادت بها عن حقيقتها وأصالتها .

والعودة بالإسلام إلى ما كان عليه أيام الرسول ﷺ والصدر الأول من صفاء ونقاء .

٢ ــ إقامة مجتمع إسلامى يؤمن بالإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهج حياة ، فى ظل دولة إسلامية تطبق أحكام الإسلام فى جميع شؤون الحياة [1] .

---

(١) نقلا عن : أحمد عبد الغفور عطار : محمد بن عبد الوهاب : ٩٩ .

وقد تحققت أكثر هذه الأهداف فى حياة الشيخ ، وقرت عينه بثمرة جهوده ومن معه بعون الله وتوفيقه ثم بمؤازرة الإمام محمد بن سعود وأبنائه من بعده .

فخلصت الدعوة العقيدة مما شابها من أدران الشرك والخرافات والبدع ، وقضت على مظاهر الانحراف عن العقيدة الصحيحة ، وطمست معالم الشرك والبدع الظاهرة ، فهدمت المبانى التى على القبور ، وقطعت الأشجار ، وأزيلت الأحجار التى كانت تصرف لها بعض أنواع العبادة ، ومنعت المناسبات التى تقام فيها أنواع من الشعوذة باسم الدين إلى غير ذلك ، وقد نفذ هذا فى البلاد التى تأثرت بالدعوة وانطوت تحت لواء الدولة السعودية الأولى .

كذلك استطاعت الدعوة إقامة مجتمع إسلامى يؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة ، ويقيم شعائر الإسلام الظاهرة كالمحافظة على صلاة الجمع والجماعة والأعياد، وجباية الزكاة وترتيب العمال لقبضها بعد أن كان الناس يدفعون ضرائب، وعين قضاة للفصل فى الخصومات بين الناس وتحكيم شرع الله ، وتطبيق أحكام الإسلام بعد أن كان بعض الناس وخاصة البدو يتحاكمون إلى العرف ، وأقيمت الحدود الشرعية مما هيأ الأمن والاستقرار فى البلاد.

كما أحيى نظام الحسبة وعُين فى كل بلد تحت حكم الدولة محتسبون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويحثون على الالتزام بالآداب الإسلامية ، ويراقبون الأسواق والأسعار والمكاييل والموازين .

كذلك أنشئ بيت مال المسلمين ، ووضعت قواعد تنظم جباية أمواله وأوجه الصرف والإنفاق منه، واستطاعت حكومة الدعوة أن تقضى على الإمارات المتناحرة المتناثرة فى أجزاء متفرقة من شبه الجزيرة العربية، وأن توحد معظم أجزاء هذه الجزيرة تحت حكم دولة إسلامية واحدة ، هى الدولة السعودية الأولى التى امتدت حدودها شمالا من حدود بلاد الشام إلى حدود اليمن جنوبا ، ومن البحر الأحمر غربا إلى الخليج شرقا [1] .

ولم تقف آثار الدعوة السلفية عند هذا ،بل امتدت آثارها الفكرية والاجتماعية

---

(١) ينظر د . عبد الله الشبل:الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ، حياته ودعوته : ٢٦ ، وعبد الله خياط : حركة الإصلاح الدينى فى القرن الثانى عشر ، مجلة البحوث الإسلامية العدد الأول : ١٣٧ ــ ١٤٠ .

والسياسية الواسعة داخل الجزيرة العربية وخارجها بدرجة ليس هنا مكان بسطها .

ويجمل الشيخ عثمان بشر بعض مآثره فى الدين فيقول : وكفى بفضله شرفا ما حصل بسببه من إزالة البدع واجتماع المسلمين وإقامة الجماعات والجمع وتجديد الدين بعد دروسه وقلع الشرك بعد غروسه . . . فعمرت نجد بعد خرابها وصلحت بعد فسادها واجتمعت بعد افتراقها ، وحقنت الدماء بعد إزهاقها ، ونال الفخر والفضل والملك من نصره وآواه [1] .

الدولة السعودية والدعوة السلفية :

ترجع صلة الدولة السعودية بالدعوة السلفية التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى القرن الثانى عشر الهجرى ، الثامن عشر الميلادى ، حين التقى الإمامان محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب صاحب تلك الدعوة ، لأول مرة سنة ١١٥٧ هـ واتفقا على ما عرف باتفاق الدرعية ، وفيه تعاقد الاثنان على نُصرة دين الله والجهاد فى سبيله ، وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[2] .

ويعتبر هذا الاتفاق بين الإمامين النواة الأولى فى بناء صرح الدولة السعودية الأولى وعلو شأن آل سعود .

لقد ورد فى الأثر : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ، ومن هنا أدرك الشيخ محمد بن عبد الوهاب أهمية القوة والسلطان فى نشر الدعوة وإعلاء كلمة الله ، فقد بحث عن قوة تناصره فى إعلان دعوته وتطبيقها فوجد ضالته فى الدرعية ، وفى أميرها محمد بن سعود الذى اقتنع بالدعوة وبصحة ما ينادى به الشيخ ، فكان خير عون للشيخ فى تحقيق أهداف الدعوة كما كان ــ ونسله من بعده ــ خير حماة لها ولإنجازاتها الخيرة ، إيمانا من آل سعود بأن ما يدعو إليه الشيخ ما هو إلا الإسلام الصحيح الذى جاء به النبى ﷺ . ووفاء منهم بالعهد الذى تضمنه الاتفاق بين الإمامين .

لذا فإنه ما إن استقر الشيخ فى الدرعية حتى أصبحت المركز الرئيس للدعوة ،

---

(١) ينظر : عبد الله الشبل المرجع السابق : ٦١ ، ٦٢ .

(٢) عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد : ١/ ١٨٤ .

وبدأت تمارس نشاطها فى حماية إمارة الدرعية ، وأصبحت تلك الإمارة خليفة للدعوة فى السراء والضراء وفى المنشط والمكره ، لذا لما بعث الإمام ابن عبد الوهاب الرسائل التى تشرح حقيقة الدعوة وأهدافها إلى مختلف البلدان ، وبعث العلماء من أجل بيانها للناس ،وامتنع الكثير عن الاستجابة لها ، اضطرت حكومة الدرعية إلى المواجهة العسكرية مع خصوم الدعوة .

وقد اتسعت رقعة الحروب وتعددت جبهاتها ، وتحملت هذه الحكومة الكثير فى سبيل تثبيت أركان الدعوة ونشرها بين الناس ، وخسرت الكثير من الرجال ومن أبناء الأسرة الحاكمة بالذات ، وقد قدر عدد من قتل من أبناء الأسرة بثلاثين رجلا خلال حكم الدولة السعودية الأولى فقط من سنة ١١٥٧هـ إلى سنة ١٢٣٣هـ منهم الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ، والإمام عبد الله بن سعود ابن عبد العزيز الذى قتل فى الآستانة على يدى السلطان العثمانى ، وكان آخر حكام الدولة السعودية الأولى .

لكن تمخضت هذه الحروب عن بسط نفوذ الدولة السعودية على معظم شبه الجزيرة العربية ، وهكذا كان التحام الدولة السعودية الأولى بالدعوة السلفية والتحام الدعوة بها هدفا واحدا ومصيرا واحدا .

واستمر هذا الالتحام قائما بين الدعوة والدولة السعودية الثانية والثالثة . وبلغ من قوة التحامهما وتلازمهما أن كان ما ينال الدولة السعودية من قوة أو ضعف فى أدوارها المختلفة ينعكس على الدعوة قوة وضعفا أيضا .

ويلحظ هذا عندما نعرف أنه لما زالت الدولة السعودية الأولى، تعرضت الدعوة للضعف لعدة عوامل من أهمها : انعدام القوة التى تناصرها حتى قام مؤسس الدولة السعودية الثانية الإمام تركى بن عبد الله سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م فاحتضن الدعوة وناصرها ، فعادت إليها قوتها ومكانتها وظلت الدعوة قوية منصورة طوال حكم الدولة السعودية الثانية .

ثم فى فترة غياب الحكم السعودى فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، مرت الدعوة أيضا بفترة ضعف نسبى حتى أذن الله بظهور الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود مؤسس الدولة السعودية الثالثة ، الذى أخذ على عاتقه

نصرة الدعوة وإقامة دولة إسلامية تحكم شرع الله، وتتخذ الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة فعادت للدعوة قوتها ومكانتها،وقد سار خلفه من بعده على نهج أبيهم إلى اليوم .

ومن هنا فإن حكام الدولة السعودية بأدوارها الثلاثة لم يكونوا فى الواقع حكاما فقط بل كانوا رجال دعوة أيضا .

فإذا تتبعنا مواقفهم وأفعالهم وأقوالهم على مدار تاريخهم تأكد لنا ذلك واتضح ، وفيما يلى سأورد نماذج من أقوالهم وأفعالهم تشهد لهذا .

فالإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى عندما عرف حقيقة الدعوة السلفية ، وعلم ما فيها من المصالح الدينية والدنيوية يقول لإمام الدعوة : يا شيخ ،إن هذا دين الله ورسوله،ولا شك فيه فأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به . والجهاد لمن خالف التوحيد ، ويتعاهد الإمامان على نصرة دين الله ورسوله والجهاد فى سبيله وإقامة شرائع الإسلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1] كما جاء فى اتفاق الدرعية .

وما زالا على هذا العهد حتى رحل الإمام محمد بن سعود إلى جوار ربه .

ويخلفه ابنه عبد العزيز ثم سعود بن عبد العزيز ثم عبد الله بن سعود ، ويمضون على العهد ينصرون الدعوة وينشرونها ويحمونها .

وعندما بدأ الإمام تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود كفاحه لبناء الدولة السعودية الثانية احتضن الدعوة وناصرها ، وجاهد فى سبيل إرجاع الناس إليها .

يقول ابن بشر : وكان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، ويرسل النصائح دائما إلى أهل البلدان من الخاص والعام ، يحضهم على القيام بشرائع الإسلام .

ويورد ابن بشر رسالة من الرسائل التى كان يوجهها إلى الناس ، ويضمنها توجيهاته فيقول ابن بشر : رأيت أن أورد رسالة من رسالاته لرعيته المتضمنة للنصيحة ؛ ليعلم من سمعها أنه من الداعين إلى الله المجاهدين فى سبيل الله .

ثم يورد له رسالة مطولة مليئة بالنصح والتوجيه والإرشاد جـامعة لمعانى الخير . . . يقول ابن بشر بعد أن أوردها : فانظر إلى هذه النصيحة وما اشتملت

(١) ابن غنام ، تاريخ نجد : ٨١ .

عليه من الأحكام والدعوة إلى الله والشفقة على عباد الله .

وهذه الرسالة ومافى معناها تبيّن لنا صفة مراسلاته ونصائحه لرعيته التى يبعث بها فى كل سنة إلى كل ناحية ، وهذه عادته وعادة ابنه فيصل يرسلون النصائح للرعايا فى كل سنة لكل بلد ورقة .

ولو رسمت نصائحهم ومراسلاتهم المتضمنة لذلك ، وشدة تعاهدهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الله دائما لا يفترون لبلغت كتابا [1] .

وكذلك يورد نماذج من رسائل الإمام فيصل بن تركى التى تسير على نهج رسائل أبيه من التوجيه والنصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى إحدى هذه الرسائل الجامعة يوجه الإمام فيصل إلى كيفية تبليغ نصيحته فيقول : فاقرؤوا هذه النصيحة فى جميع مساجد البلدان وانسخوها ، وأعيدوا قراءتها فى كل شهرين [2].

* * *

وتأتى الدولة السعودية الثالثة استمرارا فى هذا الاتجاه وتأكيدا له، فكان الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ ما يفتأ يؤكد سيره على خطا أسلافه فى نصرة الدعوة والتمسك بشرع الله والحرص على تحكيمه ، بل ويحلو له أن يؤكد دائما أنه داعية إلى الله فمن أقواله المأثورة عنه :

« نحن دعاة إلى التمسك بالدين الخالص من كل بدعة ، نحن دعاة إلى العروة الوثقى التى لا انفصام لها [3] .

نحن دعاة ندعو المسلمين لأن تكون كلمة الله هى العليا ، أعاهد الله ثم أعاهد المسلمين على ألا أحيد عن ذلك [4].

إننى أعمل جهد الطاقة فى سبيل إعلاء كلمة الدين ، وإحلال عقيدة السلف الصالح؛ لذلك فإننى مبشر أدعو لدين الإسلام ونشره .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد : ١/١١٣ ــ ١١٨ .

(٣) المكان السابق : ٢١٩ .

(٤) عبد المنعم الغلامى : الملك الراشد عبد العزيز : ٣٦٤ ، ٣٧٦ .

وإنى داعية أدعو لعقيدة السلف الصالح وهى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله محمد وما جاء عن الخلفاء الراشدين (١).

دستورى وقانونى ونظامى وشعارى دين محمد ﷺ . إما حياة سعيدة على ذلك، وإما موتة شهيدة » (٢) .

وقد ترك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ أمر الدعوة من بعده أمانة فى عنق أبنائه فيقول : (إن أبنائى بعدى سيعكفون على إكمال رسالتى ، وإذا منحهم الله العون الذى منحنى فإنهم سيرسمون الطريق لأكثر من ألف مليون مسلم) (٣) .

ولم يكتف عبد العزيز بالقول بل أتبعه بالعمل ، فقد أولى الدعوة والعلوم الإسلامية جل اهتمامه ورعايته ،وسلك فى ذلك نهجا جديدا يتناسب مع متطلبات الحياة التى جدت،فعنى بتدريس علوم الدعوة فى المساجد والمدارس،ونشر مؤلفات إمام الدعوة وعلمائها، كما عنى بنشر كتب الشريعة واللغة العربية ، وعمارة المساجد وإنشاء هيئات الحسبة ، هذا بالإضافة إلى الأجهزة المساعدة الأخرى التى تسهم فى نشر الدعوة وتطبيق شرع الله .

ويسير أبناء عبد العزيز من بعده على نهجه ، فيؤكد الملك الشهيد فيصل ذلك بقوله :

إننا فى هذا البلد قد عاهدنا الله على أنفسنا بأن نكون بحول الله وقوته خداما لشريعة الله ، داعين إلى الله ، متعاونين مع كل إخواننا المسلمين فى أقطار الأرض لما فيه نصرة هذا الدين ، وتحكيم شرع الله وخدمة شعوبنا ، بل ونشر العدالة فى العالم أجمع (٤) .

ويقول ــ رحمه الله ــ أيضا : سياستنا أولا وقبل كل شىء هى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ، واستنباط ما يصلح لأمور ديننا وما يصلح لشؤوننا على ألا

---

(١) عبد المنعم الفلامى : الملك الراشد عبد العزيز : ٣٦٤ ، ٣٧٦ .

(٢) من كلمة الملك فهد بن عبد العزيز فى حفل افتتاح أعمال المؤتمر العالمى عن تاريخ الملك عبد العزيز المنعقد فى الرياض من ١٩ ــ ١٤٠٦/٤/٢٣ هـ .

(٣) جريدة أم القرى العدد : ١٣٢ فى ٤ شوال ١٣٦٩ هـ .

(٤) مجلة اليمامة ص ٨ العدد : ٦٢ فى ١٢/٣٤ .

نخرج عما فى كتاب الله وسنة رسوله .

كل ما لا يوافق الشريعة الإسلامية فهو ردىء ، ولا قضاء غير شرع الله ، ولا نوافق على نظام لا يفهم له أساس من ديننا الذى استوعب كل ما فى الحياة [1].

ويأتى الملك خالد ــ رحمه الله ــ من بعد فيصل ، ويؤكد ذلكم النهج ، ويوجه بيانا تاريخيا إلى الأمة يحدد فيه سياسته ويرسم معالمها ، أقتطف منه السطور التالية :

« ... وفى المجال الداخلى كانت الشريعة الإسلامية وستظل إن شاء الله الراية التى نستظل بها ، والهدف الذى نسعى إليه، نحتكم لمبادئها، ونستضىء بنبراسها ونعض عليها بالنواجذ ،لا تأخذنا فيها لومة لائم ،ولا تصدنا عنها عراقيل الزمن ، نجد فيها جوهر العدل ــ والعدل أساس الملك ــ وتدفعنا مبادئها إلى النهوض والبناء ، وتحثنا على التكاتف والتآزر فى الداخل والخارج... » [2].

ويواصل أبناء عبد العزيز المسيرة على نهجه ، ويأتى الملك فهد ــ أمد الله فى عمره على الحق والخير ــ ويزيد الأمر تأكيدا وإصرارا على الالتزام بهذا النهج، وهو ما يفتأ يردد فى كل مناسبة التزامه وحكومته وشعبه بذلك، فمن ذلك قوله ــ وفقه الله ــ فى كلمته فى حفل افتتاح المؤتمر العالمى عن تاريخ الملك عبد العزيز : (وإنى أؤكد أن من نعم الله على هذه البلاد وحسن حظها أن حاضرها المشرق موصول بماضيها العريق، وأن ما تشهده هذه البلاد من تحكيم شرع الله ، ومن تنمية متتابعة ومتواصلة فى مجال التعليم والتدريب والزراعة والصناعة والرقى بالإنسان والسير بـه على المنهاج الإسلامى ، إنما هو امتداد أصيل لنهج الملك عبد العزيز ــ رحمه اللـه ــ وطريقته الفذة فى العدل والإنصاف وتحكيم شرع الله ... وكما تمسكنا بهذا المنهاج فى حاضرنا ، فإننا سنظل بإذن الله جل وعلا متمسكين به حتى يرث الله الأرض ومن عليها) .

ومن أقواله أيضا :(المملكة العربية السعودية هى واحدة من دول أمة

---

(١) من كلمة له فى حج عام ١٣٧٤ هـ نقلا عن : عيد مسعود الجهنى : رجال ومواقف ٩٥ .

(٢) قدرى قلعجى : موعد مع الكرامة : ١٠٠ ، ١٠١ .

الإسلام ، هى منهم ولهم ، نشأت أساسا لحمل لواء الدعوة إلى الله ، ثم شرفها الله بخدمة بيته وحرم نبيه فزاد بذلك حجم مسؤوليتها وتميزت سياستها وتزايدت واجباتها ،وهى إذ تنفذ تلك الواجبات إنما تتمثل ما أمر الله به من الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة وما كان يفعله رسول الله ﷺ) (١) .

ولقد صدقت أقوالهم فكانت الشريعة ولا زالت هى المحكمة ، وكلمة الله هى العليا والدعوة إلى الله رسالة كل واحد من حكام تلك الدولة بأدوارها الثلاثة يعمل على تحقيقها ورفع رايتها .

وفى هذا العصر أدركت حكومة الدعوة (المملكة العربية السعودية) ضرورة إعادة النظر فى أسلوب الدعوة بما يتناسب ومعضلات العصر ومتطلبات الحياة ، فنحت مناحى أخرى تلائم الواقع وتلبى حاجاته وتستكنه المستقبل فتضع له الخطط الواقية ،فأنشأت مؤسسات متخصصة لخدمة الإسلام والدعوة إليه وإعداد الدعاة . وأهم تلك المؤسسات :

- وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .
- الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- جامعة أم القرى .
- رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء .
- كما سعت لإنشاء رابطة العالم الإسلامى .
- ومنظمة المؤتمر الإسلامى .
- والندوة العالمية للشباب الإسلامى .

كمنظمات دولية وهيأت لها المقار فى بلادها ، ووفرت لها كل أسباب العمل الجاد ، وما يكفل لها أداء رسالتها لتقوم بالعمل الإسلامى على المستوى العالمى .

هذا بالإضافة إلى ما تقوم به وزارة المعارف وجامعات المملكة الأخرى

---

(١) وثائق الخليج والجزيرة العربية لسنة ١٩٧٥ ص ١٦١ ، من منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية تصدر عن جامعة الكويت ط ١ ، الكويت ١٩٧٩ م .

والمؤسسات التعليمية الأخرى ، إذ نستطيع القول : إن كل مؤسسة تعليمية فى المملكة هى فى الواقع مؤسسة دعوة لما تضمنته المناهج الدراسية من عناية بعلوم الشريعة واللغة العربية ، ولما تتسم به سياستها التعليمية من حرص على التنشئة الإسلامية الصحيحة لطلابها .

وما عمل الدولة السعودية على تبنى مبدأ التضامن الإسـلامى بين المسلمين ، إلا لإدراكها لمسؤوليتها وأداء منها لرسالتها تجاه هذا الدين وتجاه الأمة الإسلامية .

* * *

ومن هذا العرض السريع يتضح مدى صلة الدولة السعودية بالدعوة السلفية ، وصلة الدعوة بها ومدى تمازجهما بعضهما ببعض ، وانصهارهما فى بوتقة واحدة كونت منهما كيانا واحدا لا تنفصل أجزاؤه عن بعضها البعض . . . ولا يمكن أن تنفصل لأنها لا تقبل ذلك بإذن الله وعونه .

الموقف الإيجابى لعلماء مصر ومفكريها من الدعوة السلفية :

لقد أحدثت الدعوة السلفية التى قام بها ودعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى ، أحدثت هزة عظيمة فى العالم الإسلامى، وأثارت بما جاءت به ضجة كبرى وجدلا كثيرا بين علماء المسلمين ومفكريهم ، بل تعداهم إلى غير المسلمين من علماء ومفكرى الغرب والشرق .

فقد شغلت هذه الدعوة من حين ظهورها حتى اليوم أذهان العلماء والمفكرين ، وشدت انتباههم وحركت أقلام الكاتبين ، فكتب عنها أساطين العلم والفكر من مختلف الجنسيات واللغات والانتماءات ، وكتب عنها علماء من العالم العربى : من مصر ومن الشام ومن العراق ومن شمال إفريقيا ومن الجزيرة العربية.

وكتب عنها علماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامى .

كما كتب عنها كبار المستشرقين بمختلف لغاتهم وجنسياتهم ومعتقداتهم .

وكان من هؤلاء الكاتبين المؤيد وكان منهم المعارض . منهم المنصف لها ومنهم الجائر عليها ، بل إن من المعارضين لها من اتسم موقفه بالقسوة ورأيه بالشطط

فأطلقوا عليها اسم الوهابية ، لإيهام الناس أنها دين أو مذهب جديد وجعلوا اسم الوهابية علما على الوحشية والهمجية والجمود والخروج على جماعة المسلمين والانحراف فى العقيدة ، وأفهموا الناس ذلك عن طريق الادعاءات المرجفة والمنطق الخادع فصدقهم كثير من الناس .

لقد تكالب على هذه الدعوة فى أول ظهورها قوى ثلاث هى :

- الحكام الجائرون .
- والعلماء المنحرفون .
- وعوام الناس المضللون .

ولكن الله أراد لها الظهور كما أراد لها البقاء فيما بعد ، على الرغم مما تلاقيه من معارضة مستمرة وخصومات واسعة بقى الكثير منها إلى اليوم.

إلا أننا نرى فى السنوات المتأخرة تباشير الوعى والإدراك لحقيقة العقيدة السلفية بازدياد العلم والمعرفة ، ذلك أنه كلما زاد المسلمون تنورا وتعلما وثقافة كلما ازداد تفهمهم لعقيدة السلف وإقبالهم عليها ؛ لأن الإسلام الصحيح وعقيدته وأحكامه تحيا وتزدهر حيث يسود النور والمعرفة .

وإذا نحن أمعنا النظر فى أسباب هذه المعارضات والخصومات لهذه الدعوة أدركنا أنه لا يستغرب أن تواجه الدعوة السلفية هذا العنت وذلك للأسباب الآتية :

١ ــ لقد جاءت الدعوة السلفية معارضة لما كان سائدا من معتقدات فاسدة ، وشعوذات وانحرافات عن الدين عمت بها البلوى فى المجتمعات الإسلامية آنذاك ، فكان طبيعيا من أصحاب تلك المعتقدات أن يقفوا فى وجه الدعوة ، وأن يحاربوها اعتقادا منهم أنهم يدافعون عن الحق ، وهذا يرجع إلى جهل الكثيرين منهم بالدين الصحيح وجهلهم بحقيقة تلك الدعوة .

٢ ــ زاد الحرب ضراوة ضد الدعوة السلفية وأتباعها أن آثارها لم تقتصر على الجزيرة السعودية ، بل تخطت حدودها إلى جهات أخرى كثيرة من أنحاء العالم الإسلامى، فكان لها مؤيدون وأنصار فى جميع أقطار العالم العربى بلا استثناء ،

وفى إفريقيا وفى شبه القارة الهندية وفى جنوب شرق آسيا [1].

ولا شك أنه باتساع المكان تتسع الخصومات وتكثر .

٣ ــ لقد كانت هذه الدعوة الشعلة الأولى لليقظة فى العالم الإسلامى كله منذ القرن الثانى عشر الهجرى ، كما يقول خير الدين الزركلى فى كتابه (الأعلام) [2] ،وكما يقول المؤرخ الأمريكى لوثروب ستودارد فى كتابه (حاضر العالم الإسلامى) [3].

وكما يقول أيضا جمال الدين الشيال فى كتابه (محاضرات عن الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث) [4].

وهى الأم الكبرى للنهضات الإصلاحية فى بلاد العرب وفى بلاد المسلمين كما وصفها بذلك الأستاذ أمين سعيد [5] .

ويقول عنها المؤرخ الكبير الدكتور المصرى محمد ضياء الدين الريس :

« والواقع أن كل حركات الإصلاح التى ظهرت فى الشرق فى القرن التاسع عشر ، كانت مدينة للدعوة الوهابية فى تقرير مبدأى الاجتهاد والدعوة إلى الرجوع إلى مذهب السلف ، ويصف إقرار هذين المبدأين بأن لهما أكبر الأثر فى تطور العالم الإسلامى وتقدمه » [6].

وكان الدكتور طه حسين يتوقع من هذه الدعوة أن توحد العرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لو لم تواجه بالعقبات التى ووجهت بها .

بل إن الدكتور محمد بديع شريف ــ عراقى الجنسية ــ يرى أنه لو تم لهذه الحركة سيرها لتغير وجه التاريخ فى الشرق الأدنى .

ويقول أيضا : (. . . فقد فتحت هذه الدعوة أفقا جديداً للمسلمين فى كافة

---

(١) جريدة القبس الكويتية ، عدد خاص عن المملكة صدر فى ٢٩/ ٥/ ١٤٠٧ هـ، ٢٥ يناير ١٩٨٧ م .
(٢) د . عبد الله الشبل : مرجع سابق ص ٦٧ ــ ٧٢، وينظر أيضا : محمد بن عبد الله السمان : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ٨٠ ــ ١٠٠ .
(٣) ٧/ ١٣٧ ط ٣ .
(٤) ١/ ٢٦ .
(٥) ص ٣٨ .
(٦) سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب : مقدمة الكتاب : ١٠ .

أنحاء العالم الإسلامى ، فنكاد لا نجد حركة من حركات الإصلاح إلا كان مرجعها لما نادى به محمد بن عبد الوهاب . . .) (١).

ولا شك أن دعوة هذه مكانتها وهذه آثارها على المجتمع الإسلامى ، لابد أن تجد الخصوم الكثيرين من أولئك الذين يهمهم أن يظل العالم الإسلامى فى رقدته ، أو من صنائعهم أو التابعين لهم عن جهل ، ولابد أن تستخدم ضدها أشد أنواع الأسلحة الكلامية والمادية إذا اقتضى الأمر ذلك .

٤ــ ثم إن السلفية تعنى فى أدق معانيها إفراد الله بالألوهية والربوبية والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فهى تربط المؤمنين بالينابيع الصافية، وتسقط عنهم رواسب القرون والأجيال من ابتداء البشر .

إن فى العبادة الخالصة لله وحده ، والرجوع إلى الكتاب والسنة تحريراً للعقل والنفس، للفرد وللجماعة ، والعقيدة السلفية الصحيحة كما تحرر العقل والفكر تطلق القوى والطاقات وتخلص الإنسان من العبودية للإنسان .

وهى كما تنفى الاستسلام والانقياد والخضوع بغير حق تنفى السلبية والتواكل وهجر الدنيا واعتزال الناس .

هذه عقيدة السلف فى حقيقتها الصافية وآثارها الإيجابية النافعة فى إصلاح النفس وإصلاح الناس ، وتطلق طاقات العقل والنفس والبدن وفقا لأمر الله وابتغاء مرضاته ورجاء مثوبته ،ولا تقتطع الإنسان من الدنيا ولا تعزله عن الناس ، وإنما تقيم التوازن الرشيد بإقامة القسط بين الغاية والوسيلة .

وعقيدة هذا فعلها فى العقول والنفوس والقوى والطاقات ، وهذه غاياتها من تخليص الإنسان من العبودية للإنسان ومن الاستسلام والانقياد والخضوع ، ومن نفى السلبية والتواكل واعتزال الحياة ، لابد أنها لا تروق لأولئك الذين يريدون للإنسان المسلم أن يظل عقله وفكره رقيقا لموروثات منحرفة ، أو لمستوردات من وراء الحدود ضالة ، ويريدون لطاقاته وقواه أن تظل أسيرة الأمانى والأحلام العذاب التى تشل الحركة وتخدر الوعى كى يبقى دائما تابعا قانعا مستسلما حتى يسهل استعباده ، والسيطرة عليه واستغلاله .

(١) فى مقال فى مجلة الإرشاد التى كانت تصدر فى الكويت عدد رجب ١٣٧٣ هـ .

لقد اتفق شيخا الجزائر وموقدا شرارة الثورة الجزائرية الحديثة الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمى مؤسسا جمعية العلماء الجزائريين ؛ اتفقا على أن البلاء المنصب على الشعب الجزائرى إبان الاستعمار الفرنسى آت من جهتين متعاونتين عليه ، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويفسدان عليه دينه ودنياه : استعمار مادى هو الاستعمار الفرنسى ، واستعمار روحانى يمثله أولئك المتاجرون باسم الدين المؤثرون فى الشعب المتغلغلون فى جميع أوساطه المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية .. والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته وغرضهما تجهيل الأمة لئلا تفيق ، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة .

ولقد كان من سداد الرأى أن يبدأ بمحاربة هذا الاستعمار الثانى [1] الروحانى . ويعلل البشير الإبراهيمى اتجاه جمعية العلماء الجزائريين هذا بقوله :

(فإن تحرير النفوس والعقول هو الأساس لتحرير الأبدان وأصل له ، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا . . .) [2].

ولما تقدم كله كانت الأصداء المدوية للدعوة السلفية التى قام بها وأيقظها محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله — وكان العداء المتمثل فى التشكيك بحقيقتها والافتراء عليها وعلى أتباعها ومحاربتها بشتى الوسائل والأساليب .

* * *

ومصر أرض الكنانة ، وموئل الأزهر ، ومركز العلم والمعرفة لما لها من مكانة فى قلوب المسلمين ، ولما لها من وزن كبير بين أقطار العالم الإسلامى ؛ فإن لموقف علمائها ومفكريها من الدعوة وزنه وله أثره .

فما هو موقف هؤلاء العلماء والمفكرين من تلك الدعوة ؟

لقد اتسم موقف الكثيرين من هؤلاء فى البدايات الأولى للدعوة بالمعارضة والاستنكار وذلك لسببين :

أحدهما: عدم المعرفة بحقيقة الدعوة لعدم وضوح الأمر لقلة المعلومات عن

(١) دراسات فى النهضة العربية الحديثة : ٢١ .

(٢) مجلة الشباب ، عدد المحرم ١٣٥٧ هـ مارس ١٩٣٨ م .

الدعوة.

والثانى : لما أثير حول الدعوة من أكاذيب وتشويهات حجبت حقيقتها عن كثير من الناس، وأثارت حولها الكثير من الشكوك مما أثر فى موقف الناس منها وأبطأ فى التعرف عليها والاستجابة لها .

لكنه مع مرور الزمن وبسبب الاتصال المباشر بين رجال الدعوة وبين الحجاج فى موسم الحج ، ومع نمو وتطور وسائل الاتصال بين مصر والجزيرة العربية ، وأيضا للجهود التى بذلها من عرف الدعوة من هؤلاء العلماء فى توضيحها وتعريفها للناس فى مجتمعهم؛ لذلك كله وغيره وضحت حقيقة الدعوة ، وعرفت أهدافها ومقاصدها فكان أن غير الكثيرون موقفهم منها من السلب إلى الإيجاب ومن المعارضة إلى التأييد ، بل أصبح أصحاب هذا الموقف يشكلون أكثرية بين العلماء والمفكرين .

بل جرد بعضهم أقلامهم للكتابة عن الدعوة والإسهام فى توضيحها ، وتفنيد الشبهات التى أثيرت حولها أو بالإشادة بها وبيان أهميتها ، وأفرد بعضهم الكتابة عنها فى كتب مستقلة وبعضهم كتب عنها فى ثنايا كتاباته .

وفى بحثى هذا سأورد مقتطفات تمثل نماذج من كتابات بعض من كتبوا عن هذه الدعوة السلفية فى عهد الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ من سنة ١٩٠٢ ــ ١٩٥٣م تعبر عن مواقف هؤلاء الإيجابية ، وأقول : نماذج لأنى لم أقصد الحصر والاستقصاء لمن كتب وما كتب ، إذ هو يتطلب جهدا ضخما ويحتاج إلى وقت طويل وحيز كبير .

لقد كانت المواقف الإيجابية لعلماء مصر من الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية متزامنة مع ظهور تلك الدعوة ، وأوضح مثال على ذلك موقف شيخ المؤرخين المحدثين عبد الرحمن الجبرتى الذى أوضحه فى كتابه :(عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) .

ففى أخبار ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م ينقل الجبرتى ــ رحمه الله ــ نص رسالة أرسلت من أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى شيخ الركب المغربى فى حج تلك السنة تتضمن دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب وعقيدته .

وقد استغرق هذا البيان عن الدعوة السلفية صفحات من كتاب الجبرتى ، وبعد أن أورد الجبرتى الرسالة علق عليها بشهادته التى يجهر فيها بالحق وهو العالم الأزهرى فيقول :(إن كان كذلك فهذا ما ندين لله به نحن أيضا ، وهو خلاصة لباب التوحيد ، وما علينا من المارقين المتعصبين) (١) .

ويتأكد موقف الجبرتى هذا من الدعوة فى مواضع متعددة من كتابه.

وعند الحديث عن المواقف الإيجابية لعلماء مصر ومفكريها فى عهد الملك عبدالعزيز ــ رحمه الله ــ فلابد أن تكون بداية الحديث عن موقف الشيخ الإمام المصلح الكبير محمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥م وهو وإن لم يكتب عن الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية ــ فيما أعلم ــ إلا أنه كان يلتقى معها فى معتقده وفى أفكاره، فحركة الإصلاح التى نهض بها كانت منطلقة من منطلق سلفى ومؤسسة على العقيدة السلفية.

وكان الشيخ محمد عبده يسعى ــ فيما يسعى إليه ــ إلى تنقية العقيدة الإسلامية مما خالطها من البدع والخرافات ، وإلى العودة بالإسلام إلى نقائه وصفائه الذى كان عليه فى الصدر الأول من الإسلام .

وقد نادى الشيخ محمد عبده بالكثير مما نادى به الشيخ محمد بن عبد الوهاب من إصلاحات دينية واجتماعية وسياسية ، وإن اختلفت وسائل كل منهما فى الوصول إلى تحقيق هدفه وغايته .

وكتابه : (رسالة التوحيد) وكتاباته الأخرى ودروسه ومواقفه خير شاهد على سلفيته ، وينقل عنه أحمد أمين فى كتابه (زعماء الإصلاح) : إن أول ما عنى به ودعا إليه ؛ هو تحرير الفكر من التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى (٢) .

ومن هنا فلا عجب أن يكون للشيخ محمد عبده موقفه الإيجابى من الشيخ ومن دعوته، وقد سجل الشيخ حافظ وهبة هذا الموقف فى كتابه: (خمسون عاما فى جزيرة العرب) وهو يتحدث عن طلبة العلم فى الأزهر فيقول : إنه سمع

---

(١) البشير الإبراهيمى : عيون البصائر : ٢٦/١ .

(٢) من أخبار نجد والحجاز فى تاريخ الجبرتى ٩٧ ، ٩٨ .

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى مصر يثنى فى دروسه بالأزهر على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويلقبه بالمصلح العظيم، ويلقى تبعة وقف دعوته الإصلاحية على الأتراك وعلى محمد على ، لجهلهم ومسايرتهم لعلماء عصرهم ممن ساروا على سنة من سبقهم من مؤيدى البدع والخرافات ومجافاة حقائق الإسلام (١) .

أما تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا (٢) فهو أيضا سلفى المعتقد جلى السلفية ورجل دعوة وإصلاح وكانت مجلته (المنار) منبرا للدعوة إلى عقيدة السلف وتبيينها وإيضاحها والذب عنها ورد شبهات معارضيها ، وسخر مطبعة المنار لطبع ونشر الكتب السلفية بخاصة وكتب التراث بصفة عامة .

وهو مؤلف تفسير المنار تكملة لتفسير شيخه محمد عبده ومؤلف لعديد من الكتب فى مختلف علوم الشريعة . وحقق وراجع وصحح وعلق على الكثير من كتب العقيدة السلفية ومن بين ما ألفه كتاب باسم :(الوهابيون والحجاز) تحدث فيه ــ فيما تحدث ــ عن الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية وبين حقيقتها وأهدافها .

ومما قاله عنها وعن صاحبها :

لم يخل قرن من القرون التى كثرت فيها البدع من علماء ربانيين ، يجددون لهذه الأمة أمر دينها بالدعوة والتعليم وحسن القدوة ، وعدول ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، كما ورد فى الأحاديث .

ولقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى من هؤلاء العدول المجددين قام يدعو إلى تجريد التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده بما شرعه فى كتابه وعلى لسان رسوله وترك البدع والمعاصى ، وإقامة شعائر الإسلام المتروكة وتعظيم حرماته المنتهكة المنهوكة (٣). . . إلى آخر ما قال ــ رحمه الله .

ومن نفس المدرسة أيضا (المدرسة السلفية الإصلاحية) الشيخ محمد حامد الفقى مؤسس ورئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر ، الذى ألف العديد من الكتب فى مجال العقيدة والعلوم الشرعية الأخرى ، وقام بتحقيق الكثير من كتب

---

(١) ص ٣٥٧ .　　(٢) ص ٢٤٥ .

(٣) توفى عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م .

التراث الشرعية والتعليق على غيرها . وأخرجت مطبعة أنصار السنة المحمدية العديد من كتب الدعوة السلفية وكتب الشريعة والتراث .

وقد ألف كتابا بعنوان : (أثر الدعوة الوهابية فى الإصلاح الدينى والعمرانى فى جزيرة العرب) يقول فى كتابه مبينا حقيقة ما يدعو إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

« الوهابية نسبة إلى الإمام المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب مجدد القرن الثانى عشر . . . وإنهم لحنابلة تابعون لمذهب الإمام أحمد بن حنبل فى فروعه ، فهم لا يدعون علما غير ما كان عند السلف الصالح ، وإنما كان عمله وجهاده لإحياء العمل بالدين الصحيح ، وإرجاع الناس إلى ما قرره القرآن فى توحيد الأسماء والصفات : فيؤمن بآياتها كما وردت ولا يحرف ، ولا يؤول ، ولا يشبه ، ولا يمثل ، على ما ورد فى القرآن العربى المبين ، وماجاء عن الرسول ﷺ ، وما كان عليه الصحابة وتابعوهم والأئمة المهتدون من السلف والخلف فى كل ذلك . وأن تحقيق شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله لا يتم على وجهه الصحيح إلا بهذا » (1) .

أما الشيخ محمد أبو زهرة فقد تحدث فى كتابه : (المذاهب الإسلامية) الذى ظهر فى سلسلة الألف كتاب بمصر عن العقيدة السلفية حديثا مستفيضا ، بدأه بالكلام عن جمود العقل وتقديس الفقهاء والصالحين قال : الوهابية ضد تقديس الأشخاص .

لقد اتسمت العصور التى جمد فيها العقل بتقديس آراء الأئمة المجتهدين كما أشرنا ، وكان من مظاهر ذلك تقديس الصالحين فى حياتهم وبعد مماتهم ، وزيارة أضرحتهم والطواف حولها بما يشبه الطواف حول البيت الحرام ، وكان من أثر ذلك أن قامت طائفة تحارب هذا ، وتشدد فى محاربته متبعة فى ذلك آراء ابن تيمية . وقد أخرجها من مرقدها بعد أن طمرتها السنون .

ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الصحراء العربية نتيجة للإفراط فى تقديس الأشخاص والتبرك بهم وطلب القربى من الله بزيارتهم ، ونتيجة لكثرة

---

(1) ص ٥ .

البدع التى ليست من الدين ، وقد سادت هذه البدع فى المواسم الدينية والأعمال الدنيوية ، فجاءت الوهابية لمقاومة كل هذا وأحيت مذهب ابن تيمية .

والشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب . . . درس مؤلفات ابن تيمية فراقت فى نظره وتعمق فيها وأخرجها من حيز النظر إلى حيز العمل ، وإنهم فى الحقيقة لم يزيدوا بالنسبة للعقائد شيئا عما جاء به ابن تيمية ، ولكنهم شددوا فيها أكثر مما تشدد ورتبوا أمورا عليها لم يكن قد تعرض لها ابن تيمية لأنها لم تشتهر فى عهده .

إن الدعوة السلفية لم تقتصر على الدعوة المجردة ، بل عمدت إلى حمل السيف لمحاربة المخالفين لهم باعتبار أنهم يحاربون البدع وهى منكر تجب محاربته، وكانت كلما مكن لها من قرية أو مدينة أتت على الأضرحة هدما وتخريبا ، حتى لقد أطلق بعض الكتاب الأوربيين على الوهابيين وصف هدامى المعابد، ولعل ذلك الوصف فيه بعض المبالغة لأن الأضرحة ليست معابد . . .) (١) .

أقول : لقد وصف الشيخ أبو زهرة ما جاء به الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأنه هو نفسه ما جاء به ابن تيمية ، وهذا حق ، لكن ما جاء به ابن تيمية هو ما جاء عن رسول الله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين ، فلو عزا ذلك إلى الرسول لا إلى ابن تيمية لكان هو الأنسب والأولى .

هذه أربعة نماذج تمثل آراء علماء الشريعة فى الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية وفى صاحبها .

ولم تقتصر المواقف الإيجابية على علماء الشريعة كما أسلفت ، فقد كان هناك العديد من علماء الفكر لهم آراؤهم الواضحة ، ومواقفهم البينة أدركوا حقيقة الدعوة السلفية وتيقنوا من أهدافها الإصلاحية البانية ، فسجلت أقوالهم مواقفهم تلك فكانت شهادة تنطق بالحق ، وتقيم الحجة على من لا زال فى دخيلته شك فى أمر هذه الدعوة .

ومن هؤلاء الأستاذ الكبير أحمد أمين الأستاذ فى كلية الآداب جامعة القاهرة

---

(١) عبد الله بن سعد الرويشد : الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى التاريخ :٢/ ٣٢٥ .

سابقا [1] ، والكاتب والعالم المعروف .

لقد كان أحمد أمين ــ رحمه الله ــ واضحا فى رأيه حول الدعوة السلفية ، دقيقا فى فهمه لمراميها وأهدافها ، أمينا فى نقلها إلى الناس .

يقول فى كتابه: (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث) تحت عنوان : (محمد بن عبد الوهاب) : (. . . ورأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى أثناء إقامته فى الحجاز ورحلاته فى كثير من بلاد العالم الإسلامى أن هذا التوحيد الذى هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ودخله الكثير من الفساد .

فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم والمسيطر عليه وواضع قوانينه التى يسير عليها والمشرع له ، وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقه ولا فى حكمه، ولا من يعينه على تصريف أموره ؛ لأنه تعالى ليس فى حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقربين إليه . . فمعنى لا إله إلا الله : ليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تسير العالم وفقا لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس فى الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو . . .

إذا فما بال العالم الإسلامى اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى أن يشرك مع الله كثيرا من خلقه ؟

فكيف يخلص التوحيد من كل هذه العقائد ؟

إنها تصد الناس عن الله الواحد وتشرك معه غيره وتسىء إلى النفوس وتجعلها ذليلة وضعيفة مخرفة ، وتجردها من فكرة التوحيد وتفقدها التسامى .

هكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد فى العقيدة مجردة من كل شريك ، وفكرة التوحيد فى التشريع ، فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ، وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات .

دعا محمد بن عبد الوهاب إلى ترك البدع والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسل ولا شفاعة ،

(١) توفى عام ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤م .

وزيارة القبور تكون للعظة والاعتبار لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئا بجانب الله ، وقوانين سننه الثابتة التى لا تختلف والتى نظم بها الكون . . .

فكانت دعوة محمد بن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد .

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يرون ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسيتهم ليس له سبب إلا العقيدة ، فقد كانت العقيدة الإسلامية فى أول عهدها صافية نقية من أى شرك ، فلما تغيرت العقيدة تدنوا من سمو التوحيد إلى حضيض الشرك ، فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد وخشب وقبور أولياء ، وركنوا إلى ذلك فى حياتهم الخاصة والعامة وأرجعوا كل خير وشر إليها .

ومثل هذه النفوس الضعيفة التى تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين ، تأمرهم بمعروف وتنهاهم عن منكر ، فذلوا للحكام والأغنياء كما ذلوا للخشب والأحجار .

فلابد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحقة، ولابد من هدم هذه البدع والخرافات باللين إن نجح وبالقوة إن لم ينجح والله المستعان .

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المادية ، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها فعنده أن العقيدة والروح ، هما الأساس وهما القلب إن صلحا صلح كل شىء وإن فسدا فسد كل شىء .

هذا هو جوهر الدعوة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب) [1] ا . هـ .

ويورد الأستاذ محمد أديب غالب فى مقدمة كتابه : (من أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى) مقطعا من مقالة كتبها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات يوم قام الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ بزيارة مصر عام ١٩٤٦م يشيد فيها بآل سعود وآل الشيخ ، وماهم عليه من دين نقى خالص وما قاموا به من إحياء وتجديد لهذا الدين وجمع ما شت من شمل العرب عليه ، فيقول بلسانه البليغ وبأسلوبه العذب

(١) نقلا عن د . منير العجلانى : تاريخ البلاد السعودية : ٣٦٥ .

الندى :(من بوادى نجد منبت العرار والخزامى،ومهب الصبا ،ومسرى النعامى ، فاحت عطور الإسلام والعروبة من جديد وباحت الرمال الصامتة بسرها المكنون منذ بعيد ، وهبت نفحات الرسول على آل الشيخ وآل سعود فجددوا ما رث من حبل الدين ، وجمعوا ما شت من شمل العرب ، وتهيأت الفرصة مرة أخرى لشريعة الله لترى الناس كيف بسطت ظلال السلام والوئام والأمن على أشد بقاع الأرض ضلالة وجهالة وفتنة ، وتجلت فى طويل العمر عبد العزيز فضائل العرب الأصلية فمثل شاعريتها فى رهافة حسه ، وأريحيتها فى سماحة نفسه وحميتها فى صرامة بأسه ، فهـو فى دينه النقى الخالص ، وفى خلقه السوى الصحيح دليل ناهض على أن الجزيرة العربية لم تعقم بعد أنصار الدعوة وأبطال الفتوح) [1] .

ولقد كان عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين من أولئك الذين وقفوا عند الدعوة السلفية وقفة متأنية فاحصة بعيدة عن المؤثرات التى تفقد العقل ـ فـى أكثـر الأحيان ـ استقلاله ووضوح نظرته .

فكانت أن هدته وقفته تلك إلى حقيقة الدعوة وإدراك أهميتها ، وما أحدثته من آثار بعيدة المدى لا فى الجزيرة العربية ـ منبعها فحسب ـ ولكن فى العالم الإسلامى أجمع بل فى العالم الآخر أيضا . وقد تعدى ذلك إلى استنتاج ما كانت ستحدثه من وحدة إسلامية لو سلمت من العقبات التى حالت دون ذلك . يقول الدكتور طه حسين فى بحث نشره سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٣م [2] عن الحياة الأدبية

---

(١) ص١٢ ـ ١٧، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م طبع بإشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض .

(٢) الهلال ج ٥ سنة ١٩٣٣ نقلا عن : أحمد عبد الغفور عطار : محمد بن عبد الوهاب : ١١ ـ ١١٣ ، ويُنظر: سعيد أمين: سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ٢٠١ ـ ٣٠١، ويُنظر أيضاً : أحمد على سعود : آل سعود : ٢٤ ـ ٢٧ .

ملحوظة : استخدم الدكتور طه حسين عبارة « المذهب» عند تعبيره عن الدعوة وكررها عدة مرات ، وهذا يشعر بأنه جاء بشىء جديد ، والحقيقة أن ما جاء به الشيخ محمد بن عبد الوهاب ليس مذهبا وإنما هو إحياء لما اندثر من الإسلام وتجديد له ، كما عبر عن ذلك الدكتور طه حسين نفسه ، هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ، هو إحياء وتطهير له مما أصابه .

فى جزيرة العرب : (... على أن الباحث عن الحياة العقلية الأدبية فى جزيرة العرب لايستطيع أن يهمل حـركة عنيفة نشأت فيها أثناء القرن الثامن عشر (الميلادى) فلفتت إليها العالم الحديث فى الشرق والغرب ، واضطرته أن يهتم بأمرها ، وأحدثت فيها آثارا خطيرة هان أمرها بعض الشيء ، ولكنه عاد فاشتد فى هذه الأيام وأخذ يؤثر لا فى الجزيرة وحدها بل فى علاقاتها بالأمم الأوربية .

هذه الحركة هى حركة الوهابيين التى أحدثها محمد بن عبد الوهاب ، شيخ من شيوخ نجد ـ إلى أن يقول ـ : فأخذ ـ يعنى الشيخ ـ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر ليجيروه ويحموا دعوته ، حتى انتهى به الأمر إلى قرية الدرعية ، وهناك عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود فأجاره وبايعه على المعونة والنصرة ، ومن ذلك أصبح هذا الاتجاه فى الدعوة يعتمد على قوة سياسية تؤيده وتحميه ؛ بل وتنشره فى أقطار نجد بالدعوة اللينة حينا ، وبالسيف والحرب فى أكثر الأحيان .

وعن هذا التحالف بين الدين والسياسة نشأت فى الجزيرة العربية دولة سياسية عظم أمرها .

ثم يقول : فلابد من وقفة قصيرة عند هذا المذهب الجديد لنعرف ما هو ؟ وما مبلغ تأثيره فى الحياة العقلية العربية فى هذا العصر الحديث ؟

قلت : إن هذا المذهب جديد وقديم معا ، والواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين ولكنه قديم فى حقيقة الأمر ، بأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقى المطهر من شوائب الشرك والوثنية ، هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ملغيا كل واسطة بين الله وبين الناس ، هو إحياء للإسلام ،وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب . فقد أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية فى العقيدة والسيرة ، كانوا يعظمون القبور ، ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ، ويعظمون الأشجار والأحجار ، ويرون أن لها من القوةماينفع ويضر .

ثم يقول : ولولا أن الترك والمصريين ـ يقصد الدولة العثمانية وحكومة محمد على الكبير ـ اجتمعوا على حرب هذا المذهب ، وحاربوه فى داره بقوى

وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان من المرجو جدا أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب فى القرن الثانى عشر والثالث عشر الهجريين كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم فى القرن الأول .

ولكن الذى يعنينا من هذا المذهب أثره فى الحيـاة العقلية والأدبية عند العـرب ، وقد كان هذا الأثر عظيما خطيرا من نواح مختلفة : فهو أيقظ النفس العربية ووضـع أمامها مثلا أعـلى أحبته وجاهدت فى سبيله بالسيف والقلم والسنان . وهو قد لفت المسلمين جميعا وأهل العراق والشام ومصر بنوع خاص إلى جزيرة العرب .

وممن كان له موقف إيجابى من الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية المفكر والكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد . جاء فى كتابه: (الإسلام فى القرن العشرين) : (وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقى فى رسالته عنتا فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت إطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع ، والتماس المصالح بغير أسبابها ، وإتيان المسالك من غير أبوابها ،وقد عبر على البادية زمان كانوا يتكلون فيه على التعاويذ والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين، ويدعون السعى من وجوهه توسلا بأباطيل السحرة والدجالين حتى الاستسقاء ودفع البلاء ، فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة .

وكان من أثر الدعوة السلفية أنها صرفتهم عن ألوان من البدع والخرافات .

وقال أيضا وهو يتكلم عن كتاب التوحيد ، تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب : إن الكتاب الذى تضمن دعوة الشيخ هو كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد) ، وفيه يحصى الشيخ الذنوب التى تعتبر شركا بالله ، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الأحبار والأولياء قال : ومن الشرك لبس الخلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ، ومن الشرك ... التبرك بالشجر والحجر والذبح لغير الله والنذر لغير الله ، والعبادة عند القبور وأن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله، وأورد الشيخ الآيات والأحاديث فى ذلك ، وقال أيضا فى معرض حديثه عن السنوسية: وتقارب دعوة الشيخ محمد

ابن عبد الوهاب فى عصرها دعوة أخرى هى السنوسية ، والدعوتان متشابهتان فى حماسة الدعوات البادية وفى نبذ البدع والخرافات والرجوع بالإسلام إلى الكتاب والسنة ، ولكنهما تختلفان بعد ذلك فى أمور كثيرة [1].

ويؤدى الأستاذ أحمد حسين مؤسس حزب مصر الفتاة فريضة الحج سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ويتعرف من قرب على الدعوة وعلمائها ودعاتها ، وبعد عودته إلى مصر يصدر كتابا بعنوان : (مشاهداتى فى جزيرة العرب) ضمنه رأيه فى الدعوة وصاحبها فيقول ــ بعد أن وصف ما كانت تخب به جزيرة العرب من جهالة قبل ظهور الدعوة السلفية ــ : وفى وسط هذا الجو ولد محمد بن عبد الوهاب وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان قاضى بلدة العيينة ، وكان شيخا عالما جليل القدر فقرأ على أبيه الفقه ، وسرعان ما ظهرت عليه علائم النجابة وبدأ يدرك على الفور ما تردت به البادية من همجية وردة عن دين الإسلام ، وبدأت تجيش نفسه بما تجيش به نفس كل مصلح من عزم على تغيير هذه الحال ، فلما بلغ من العمر العشرين ربيعا، بدأ يستخدم فصاحته وعلمه فى مناقشة أنداده وأضرابه ومن هم أكبر منه سنًا فى فساد الحال ، فلم يجد منهم أذنا صاغية خوف بطش العامة وطغيانهم .

وبعد أن ذكر سفر الشيخ إلى الحجاز ، وأداءه فريضة الحج ، وذهابه إلى البصرة ورجوعه ثانية إلى نجد ، وهجرته إلى الدرعية واستقراره فيها ، واتفاقه مع الإمام محمد بن سعود ختم هذا البحث بقوله :

تلك هى قصة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما بدأت، والتى لم تكتمل حتى الآن ، فلا يزال أحفاد محمد بن سعود وأحفاد الشيخ محمد يحملون لواء التوحيد وينافحون عنه ، وإذا كان العالم الإسلامى كله اليوم تحت تأثير النور والعرفان ، قد بدأ يدرك بفطرته هذا الذى دعا إليه محمد بن عبد الوهاب ويتعشقه

---

(١) الإسلام فى القرن العشرين : ١٠٩ .

ملحوظة : قصر الأستاذ العقاد الانحراف فى العقيدة على البادية فى قوله : وقد غبر على البادية زمان . . . والحقيقة أن هذا الانحراف كان فى كل الأوساط فى البادية والحاضرة ، فى المدن وفى القرى وفى البوادى فكانت البلوى عامة شاملة .

فسيظل التاريخ يسجل لآل سعود الذين كانوا أول من نصره واستجاب له [1].

أما الأستاذ محمد عبد الله ماضى أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر فيورد فى كتابه :(النهضات الحديثة فى جزيزة العرب) صورة واضحة عن مبادئ الدعوة وحقيقتها ، يقول تحت عنوان :(مبادئ الوهابية) : هذه المبادئ الإصلاحية الدينية التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب وإلى العمل بها ، والتى عرفت بين الناس ، لم تأت فى الواقع بجديد خارج عن مبادئ الإسلام ، وهى فى جملتها راجعة إلى تعاليم الدين الحنيف المعروفة تعود إليه فى أصولها وفروعها .

ثم يتطرق لرأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الأصول فيقول :

أما من حيث العقيدة فهو دعوة سنية سلفية ، إذ هو راجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة وهو ينهج نهج السلف الصالح فيما يتعلق بآيات الصفات .

ويبين هذا النهج ثم ينتقل إلى رأيه فى الفروع فيقول :

فمذهب الشيخ الإمام فى جملته هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل . . .

وتنشر مجلة الإرشاد التى كانت تصدر فى الكويت فى عددها السادس الصادر فى شهر رجب من عام ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م مبحثا قيما للأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الريس أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة آنذاك . . . .

وقد تحدث فى هذا البحث عن حقيقة الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية والمبادئ والأسس التى قامت عليها ،وأشار إلى الآثار الفكرية والعلمية التى تركتها هذه الدعوة فى العالم الإسلامى .

يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس بعد أن يتحدث عن صاحب الدعوة : مولده ونشأته وثقافته : ودعوة الشيخ ليست مذهبا بالمعنى الصحيح ، وهو لا يعدو أن يكون تفسيرا أو وجهة نظر معينة فى فهم بعض نواحى الدين الإسلامى، وهو لا يخرج – فى مجموعه – عن حدود المذاهب السنية المعترف بها .

والوهابيون يتبعون فى فروع الأحكام مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وفى

---

(١) أمين سعيد : المصدر السابق : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، وينظر : عبد الله الرويشد : الإمام محمد بن عبد الوهاب فى التاريخ: ٣٠٩ .

العقائد مذهب أهل السنة ، وبخاصة كما قررها وفسرها الإمام السنى العلامة ابن تيمية ، والمبادئ الأساسية للدعوة الوهابية هى :

ــ تنقية معنى التوحيد من شوائب الشرك ظاهره وخفيه .

ــ وإخلاص الدين لله .

ــ وعدم الالتجاء إلى غير الله .

وعدم الغلو فى تمجيد الرسول بما يخرجه عن حدود الطبيعة البشرية ، وحدود معنى الرسالة التى كلف بإبلاغها .

ومصادر العقيدة هى الرجوع إلى مذهب السلف فى فهم الدين وتفسير آيات القرآن وأحاديث الرسول .

وهذه الحركة كانت نهضة أخلاقية شاملة ، ووثبة جريئة ، ودعوة إلى دين الحق والإصلاح .

فقد أيقظت العقول الراقدة ، وحركت المشاعر الخامدة ، ودعت إلى إعادة النظر فى الدين لتصفية العقيدة ، وتطهير العقول من الخرافات والأوهام .

فقد احتوت على مبدأين كان لهما أكبر الأثر فى تطوير العالم الإسلامى وتقدمه وهما : الدعوة إلى الرجوع إلى مذهب السلف مع الاعتماد على الكتاب والسنة ، وتقرير مبدأ الاجتهاد .

فكان هذان المبدآن أساسا لنهضة فلسفية روحية .

ويذهب الدكتور الريس إلى أن كل حركات الإصلاح التى ظهرت فى الشرق فى القرن التاسع عشر كانت مدينة لدعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب لتقرير هذين الأصلين .

ويقول : ويمكن تحديد الصلة بينها وبين كل هذه الحركات إما عن طريق الاقتباس أو المحاكاة أو مجرد التأثر .

ويؤلف الأستاذ عبد الكريم الخطيب كتابا بعنوان : (محمد بن عبد الوهاب العقل الحر والقلب السليم) ، وهو قد أصاب كبد الحقيقة فى وصفه للشيخ بهذا الوصف ، ولكن الحرية المقصودة هنا هى التحرر من العبودية والتبعية والخضوع لغير الله سبحانه . . .

يقول فى مقدمة الكتاب: إن الدم الذى أريق فى سبيل الدعوة السلفية دم عزيز على الإسلام والمسلمين . . . غير أن الحروب السلفية قد كان جانب الربح فيها أكثر من جانب الخسارة فيما عاد على الإسلام والمسلمين بسببها من خير كثير .

لقد أيقظت هذه الحروب مشاعر الأمة الإسلامية التى كانت قد خمدت ، وفتحت منها العيون التى عاشت زمنا طويلا فى وطأة نوم ثقيل .

ولقد برئت الدعوة السلفية من أن يختلط بها هوى أو يطيف بها زيف أو تمويه، إنها دعوة باسم الدين وللدين ، وما كان مناصروه يطمعون فى شىء أكثر من تحرير العقل الإسلامى، وتنقية العقيدة الإسلامية من شوائب الشرك والضلال ؛ لهذا كتب الله لهذه الدعوة البقاء وبارك ثمراتها فاهتدت بها عقول ، وتحررت بها نفوس لا تزال تكثر وتكثر على مر الأيام [1].

ويقول المؤلف فى آخر كتابه :

(دعوة محمد بن عبد الوهاب من الدعوات الناجحة بغير شك إذا كان مقياس النجاح مقدرا بالنتائج التى تجنى ، والثمرات التى تقتطف دون نظر إلى الأخطاء التى وقعت عبر الطريق إلى الغاية ؛ إذ خلقت فى المجتمع الإسلامى وعيا كان ضائعا ، ونبهت إحساسا كان خامدا ، وفتحت بصائر كانت مغلقة .

ثم إن الدعوة السلفية من جهة أخرى حملت الناس على أن يقلبوا وجوه الرأى ، وأن يرجعوا إلى ما خلف السلف من آراء وسنن ، فكان أن انتهوا آخر الأمر إلى الينابيع الأولى للإسلام ، يصدرون عنها جميعا فبدأت وجهات النظر تتلاقى ، على حين أخذت شقة الخلاف تضيق ، حتى صار الأمر إلى ما نراه اليوم من وحدة ، تتلاقى عندها جميع الأنظار).

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن أسباب نجاح الدعوة فيلخصها فى :

(إيمان صاحب الدعوة ، وثبات أنصاره ، وبيئة الدعوة، وزمان الدعوة)[2].

* * *

هذه نماذج من المواقف الإيجابية لبعض علماء مصر ومفكريها فى عهد الملك عبد العزيز ، وأعيد القول :

---

(١) ص ٣ ــ ٨ .

(٢) المرجع نفسه ١٤٣ ــ ١٤٩ .

إنها نماذج حيث لم أقصد الحصر والاستقصاء إذ يصعب ذلك ، وهى نماذج من مواقف بعض من كتبوا عن الدعوة، أما من يوافقها ويؤيدها ولم يكتب عنها فعددهم أكثر من أن يحصى، ذلكم أن الكثرة الكاثرة من علماء مصر فى الوقت الحاضر هو هذا .

والذين يوافقون الدعوة السلفية ويلتقون معها فى معتقدها وأهدافها ، قد يعبرون عن موقفهم هذا فى مناسبات دون أن يذكروا اسم الدعوة السلفية التى قام بها محمد بن عبد الوهاب ، وذلك بتصريحهم بانتمائهم إلى السلفية أو بمطابقة آرائهم وكلامهم لما جاء فى العقيدة السلفية .

ومن هؤلاء مثلا الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها ــ عليه رحمة الله ــ فقد أوضح فى رسالة « التعاليم » الأصول العقدية فى دعوته للجماعة ، فقد جاء فى هذا الكتاب :

(الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا . . . والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى التعرف على أحكام الإسلام . . . والتمائم والرقى والرمل والكهانة ، وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب منكر يجب محاربته ، إلا ما كان من آية من قرآن أو رقية مأثورة وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ،وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع . . . ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام ، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يتعلق بذلك من المتشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكل بدعة فى دين الله لا أصل لها استحسنوها بأهوائهم سواء بزيادة فيه أو بالنقص منه ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل) [1].

ومن هؤلاء أيضا من الأدباء الناثرين الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى ، الذى نلمح السلفية فى كلامه حين يقول تحت عنوان : المؤتمر الإسلامى :

---

(١) المكان السابق ١٤٣ ــ ١٤٩ .

(ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الدينى من الجاهلية الأخرى ، بل كانت هذه أحوج من تلك إليه .

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زلفى ، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار ، والأحياء والأموات ، والأبواب والكوى ، والقواعد والأساطين تبركا أو تقربا، لفظان مترادفان مختلفان لفظا متفقان معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه) (١).

ومنهم أيضا من الشعراء، شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم ، وهو من المقربين للإمام محمد عبده ، وسلفيته واضحة فى مواضع متعددة من شعره ، فمثلا يقول فى قصيدة بعنوان : أضرحة الأولياء :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم	وبألف ألف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة	قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها	بحر النذور وتُقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى	ووسيلة تُقضى به الحاجات (٢)

ويقول أيضا من قصيدة أخرى يمدح فيها الشيخ محمد عبده :

إمام الهدى إنى أرى القوم أبدعوا	لهم بدعا عنها الشريعة تعزف
رأوا فى قبور الميتين حياتهم	فقاموا إلى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم	على صنم للجاهلية عُكَّفُ (٣)

وهكذا كان الدين الإسلامى ، وكانت العقيدة السلفية مرتكزا يلتقى عليه أبناء الجزيرة العربية وأبناء مصر، كما يلتقى معهم عليه أبناء الأمة الإسلامية قاطبة، وهو وهى وسيلة فاعلة فى تقوية أواصر المودة والقربى ، ووشيجة متينة تنضم إلى وشائج أخرى عديدة تشد القلوب وتجذب الأرواح إلى بعضها فإذا هى وحدة واحدة تلتقى فى الآمال والآلام والمصير. وتشكل مدنية وحضارة واحدة وفكرا واحدا ، هى مدنيَّة الإسلام وحضارته وفكره.

---

(١) المنفلوطى ، من سلسلة مناهل الأدب العربى : ٤٠ .

(٢) من ديوان حافظ إبراهيم ١/ ٣١٨ . (٣) المكان نفسه : ٢٢ .

المبحث الثانى

دولة الملك عبد العزيز
كما صورها الأديب المصري المازني

الدكتور / عبد الحليم عويس
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية

تمهيد : رحلات مصرية إلى دولة الملك عبد العزيز :

الرحلة إلى جزيرة العرب قديمة ، وقد كان الحج أسمى أهدافها وأقدمها وأعظمها . ولما كان الأمن مفقودا فى كثير من الأحقاب فقد كانت الرحلة مغامرة خطيرة .

ولكن عندما جاء الملك عبد العزيز ، وطبق الشريعة ، ونجح فى القضاء على قطاع الطرق ، أمن الناس ، وهفت النفوس لزيارة الأماكن المقدسة والاطلاع على معالم الدولة الجديدة التى ذاع ما نجحت فى تحقيقه من أمن واستقرار . ففى أثناء العهد السعودى الذى وحد المملكة سنة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م، تحت اسم (الحجاز ونجد وملحقاتهما) [١] كثرت هذه الرحلات وتنوعت [٢] ، وكان للمصريين — من مفكرين وصحافيين ومصلحين وسياسيين — القدح المعلى فيها .

ومن أهم رحلات المصريين فى هذا العهد رحلة « محمد على حسن » مندوب جريدة اللواء المصرى ، و« محمد شفيق أفندى مصطفى » سنة ١٣٤٦هـ مندوب جريدة السياسة المصرية [٣] . ثم رحلة « إبراهيم عبد القادر المازنى » — موضوع دراستنا — ورحلة « محمد حسين هيكل » سنة ١٣٩٦هـ (فى منزل الوحى) ، ورحلات الأستاذ «عبد الوهاب عزام » التى قام بها إلى الحجاز وبعض مناطق المملكة الأخرى فى أوقات متفرقة ابتداء من سنة ١٩٣٧م ، ثم رحلة « أحمد حسين » سنة ١٩٤٨م (مشاهداتى فى جزيرة العرب) فرحلة الدكتورة « عائشة عبد الرحمن » (بنت الشاطئ) (أرض المعجزات) .

هذا فضلا عن رحلات المصريين الذين ارتبطوا بالناحية التربوية والتعليمية أو السياسية . . . أو الذين تعاونوا مع الملك عبد العزيز — رحمه الله — فهؤلاء من الصعب حصرهم ، أو الحديث عنهم فى هذا المقام !! .

---

(١) كان الاسم الرسمى هو : مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتهما .

(٢، ٣) منصور الحازمى : رحلات العرب فى جزيرة العرب : البلاد العربية والسعودية ١٩٠١/١٩٧٢م مجلة الدارة ٣ / ٥ مارس ١٩٨٠ م .

الكاتب المازنى :

إبراهيم عبد القادر المازنى كاتب مصرى ، وشاعر مصرى من مدرسة الديوان التى تزعمت التجديد فى المضمون الشعرى ، وقامت لمقاومة الشكل على حساب التجربة الذاتية وعمق المعنى . . . ونسبة المازنى إلى كوم مازن المنوفية بمصر.

ولد المازنى فى القاهرة سنة ١٨٨٩م / ١٣٠٧هـ ومات فيها سنة ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م فهو لم يعش إلا ستين سنة ميلادية ، وقد تلقى تعليمه فى المدارس الابتدائية والثانوية ، ثم التحق بدار المعلمين واشتغل مدرسا لمدة قليلة ، ثم تفرغ للأدب والكتابة يعيش بها ولها . وقرأ كثيرا من أدب العربية والإنجليزية .

وقد ترك المازنى عددا من الكتب والروايات والأقاصيص والمقالات أغلبها يدور حول نفسه وتجاربه الذاتية ، ومن أهمها : (إبراهيم الكاتب) ، و(إبراهيم الثانى)، و(ثلاثة رجال وامرأة)، و(صندوق الدنيا)، و(فى الطريق) ، و(غريزة المرأة) ، و(خيوط العنكبوت) ، و(ع الماشى) ، و(الشعر) ، و(حصاد الهشيم) ، و(قبض الريح) ، أما شعره فقد تناثر فى كتبه ، وشارك العقاد وشكرى فى تأصيل مدرسة الديوان وله ديوان شعر مطبوع .

كما ترجم لنفسه ترجمة أدبية مباشرة فى كتابه :(سبيل حياة) [١] .

وقد شارك المازنى فى معظم الصحف والمجلات المصرية كالرسالة والثقافة والأخبار ومجلة الأسبوع ، والمصور ، وآخر ساعة ، كما عرف بقدرته على الترجمة عن الإنجليزية بأسلوب عربى رصين . وكان من أعضاء المجمع العلمى بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ظروف الرحلة :

لكل رحلة ظروفها المؤثرة فيها ، وبالتالى فإن تسجيل هذه الرحلة ــ لكى

---

(١) انظر فى ترجمة حياته فى كتاب : (سبيل الحياة) ، وانظر : على عبده بركات : اعترافات أدبائنا فى سيرهم الذاتية ، ط ١/ ١٤٠٢ هـ مطبوعات تهامة ، جدة . وانظر : أحمد حسن الزيات : وحى الرسالة : ١٠٧ ، المجلد الثالث ط ٢ مكتبة نهضة مصر، القاهرة . وانظر : أنور الجندى : من أعلام الفكر الحديث ، نشر الدار القومية مصر ١٩٦٤م صفحات ١٠١ ــ ١٠٨ ، وانظر : خير الدين الزركلى : الأعلام ترجمة إبراهيم بن محمد بن عبد القادر المازنى .

تخرج للناس بهذه الظروف ، ولاسيما إذا كانت الظروف سياسية وتتصل ببلدين شقيقين بينهما أواصر لا يمكن تجاوزها أو النيل منها ــ عمل صعب !! .

وعندما بويع الملك عبد العزيز ملكا على الحجاز فى يناير سنة ١٩٢٦م لم يسترح الملك فؤاد لهذا الإعلان [١] ، وبالتالى حدث فتور فى السنوات التالية فى العلاقات المصرية السعودية ... هذا مع أن الملك عبد العزيز كان يسعى دائما لتحسين علاقته مع الملك فؤاد ، وقد قام بمفاوضات من أجل ذلك دون أن يجد تجاوبا .

ويؤكد لنا الزركلى سفير الملك عبد العزيز فى مصر لثمانية عشر عاما حرص الملك عبد العزيز على علاقته بمصر . فيقول : ما كتب لى الملك عبد العزيز يوما بشأن مصر ، ولاسمعته يتحدث فى سر أو علن عن مصر إلا بما فيه الحرص على حسن العلاقة وتوطيد الحب والصداقة . وقال الزركلى : إن السعودية ومصر لم تختلف سياستهما فى أمر من الأمور الجامعة .

وكانت آخر وصايا الملك عبد العزيز لأولاده :

(كونوا مع مصر دائما) .

والمهم أنه فى الفترة (١٩٢٦ ــ ١٩٣٦م) ــ أى حتى وفاة الملك فؤاد [١] ــ كانت العلاقات فاترة بين حكومة الملك فؤاد ، وبين الملك عبد العزيز .

وفى هذه الظروف نفسها قام المازنى برحلته ، وكتب فيها كتابه ، وبالتأكيد فإنه قد كتب بعضه أو كله فى الصحف قبل النشر ... وكتب فيها هذه الشهادات الرائعة فى حق الدولة السعودية وما فيها من أمن ، وما تحثه من خطًا هادئة فى مضمار التقدم ...

الكتاب :

ومن الجدير بالذكر أن (رحلة الحجاز) لم تحظ بالذيوع الذى حظيت به كتب المازنى الأخرى ... ولذلك ــ فى رأيى ــ أسباب أهمها : أن الكتاب مع ما فيه

---

(١) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الإسلامى : ٥٢٩ ، طبع لندن الطبعة الثالثة ١٩٨٢م ، وسعود الدايل : السياسة الخارجية للملك عبد العزيز ــ بحث نشر بمؤتمر تاريخ الملك عبد العزيز بالرياض .

(٢) الدايل : البحث السابق .

من جوانب ساخرة على عادة المازنى ، إلا أن الطابع الجاد يغلب عليه . . . فضلا عن أن الكتاب لم يلق من الناشرين الاهتمام ، ربما لأنه يخالف ما ينتظرونه من المازنى الروائى والقصاص وكاتب المقالات الساخر !! .

ويبدو أن من الأسباب ــ كذلك ــ الظروف السياسية التى تمت فيها رحلة المازنى إلى الحجاز ، بالنسبة للعلاقة بين مصر والسعودية فى عهد الملك فؤاد .

ولقد كان المازنى صريحا فى الكتاب فيما يتعلق بنقد السياسات العربية التى تنهج منهج التجزئة والتمزيق ، والتى تعلى من شأن الوطنية المحدودة على حساب الوشائج العربية والإسلامية، ولعل هذا ــ أيضا ــ من أسباب عدم ذيوع الكتاب . . . لدرجة أن أكثر الذين ترجموا للمازنى وتحدثوا عن أعماله لم يرد فى كتاباتهم ذكر للكتاب [١] .

وقد استعرضنا المظان التى يمكن أن يوجد فيها أثر للكتاب فى كتابات المازنى ، مثل (حصاد الهشيم) [٢]، و(قبض الريح) [٣]، فلم نجد فيهما أثرا للكتاب ولا حديثا ــ ولو عابرا ــ عن رحلته أو ظروف هذه الرحلة أو تأثيرها فى نفسه [٤] ، وحتى تاريخ القيام بالرحلة لم نجد تأريخا محددا عنه إلا ما يمكن استنتاجه من كتابه نفسه (رحلة الحجاز)، إذ جاءت فى الكتاب إشارات عابرة عن بعض الأحداث مثل : (وخطب فؤاد بك حمزة فى ختام المأدبة **لمناسبة انقضاء عام على مبايعة ابن السعود ملكا على الحجاز** ، وبين ما قامت به الحكومة السعودية من الإصلاح وما تفكر فيه من وجوهه المختلفة، ورحب بالمدعوين جميعا وخصنا نحن ــ المصريين ــ بالذكر الطيب، وأعرب عن أمله فى أن نكون رسل سلام ووئام بين الشعبين الشقيقين . فأجابه زكى باشا بالنيابة عنا وشكر وأثنى كما ينبغى)[٥].

---

(١) انظر : الهامشين الأولين فى البحث (باستثناء الزركلى) .
(٢) طبعة دار الشعب ١٩٦٩ م بالقاهرة . (٣) طبعة دار الشروق ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
(٤) وحتى الزركلى رفيقه فى الرحلة عندما ترجم له أورد اسم الكتاب (رحلة الحجاز) ضمن مؤلفات المازنى دون أى تعليق أو إضافة (انظر : ترجمة المازنى فى الأعلام) .
(٥) رحلة الحجاز : ١٣٤ .

ومثل حديثه عن الملك (الأمير) فيصل ـ رحمه الله ـ فى قوله : (والأمير فى الرابعة والعشرين من عمره ، وهو نائب الملك فى الحجاز ، كما أن أخاه الأكبر سعودا ـ ولى العهد ـ نائب الملك فى نجد . . . وهو ـ أى الفيصل ـ كما يصفه المازنى : قسيم وسيم حلو النظرة عذب الابتسامة وديع ، ولكن نظرته حين يصمت تبدو حزينة ، وهو أنطق وجه رأيته يجمع هذه المعانى) [١] .

فهاتان الإشارتان دالتان دلالة ضمنية على تاريخ الرحلة ، إذ إن الملك عبد العزيز بويع ملكا على الحجاز فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤هـ / ٧يناير ١٩٢٦ م [٢] .

ومن جانب آخر فإن المازنى قد أشار إلى أن الأمير فيصل كان فى الرابعة والعشرين من عمره (وهو تقدير سليم) فالفيصل ولد فى صفر سنة ١٣٢٤هـ أبريل ١٩٠٦م ، ومن الجدير بالذكر أنه لم تجر احتفالات بمناسبة بيعة الملك عبد العزيز إلا فى عامى ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩هـ (كما حدثنا علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر) . . . وقد ذكر الزركلى فى ترجمته لنفسه أنه قدم إلى الحجاز سنة ١٩٢٩م / ١٣٤٨هـ [٣] مما قد يفهم منه أن المازنى قدم إلى الحجاز سنة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م ، وأن هذه هى الرحلة التى قدم فيها المازنى . لكن هذا الفهم الظنى الاستنتاجى يقطعه يقين آخر لم يورده لنا المازنى ـ سامحه الله ـ وإنما أورده لنا ـ عرضا وعند الحديث عن نفسه ـ الأديب محمد حسين هيكل الذى كان المدعو الأصلى لهذه الرحلة ، لكنه اعتذر عنها وأناب عنه صاحبنا المازنى الذى بخل علينا بتدوين تاريخ رحلته . ففى كتابه (فى منزل الوحى) يخبرنا هيكل بأن الحكومة السعودية قد دعته لزيارتها ممثلا لجريدة السياسة فى مستهل شتاء سنة ١٩٣٠ م / ١٣٤٩ هـ بمناسبة تتويج الملك عبد العزيز (يقصد ذكرى تتويجه) وأن الدعوة وجهت إليه

---

(١) رحلة الحجاز : ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) انظر : محمد جلال كشك : السعودية والحل الإسلامى ٥٢٨ ، ط٣، وانظر: عبد الرحيم عبد الرحمن ، بحث أثر قوة إرادة الملك عبد العزيز فى تكوين المملكة العربية السعودية ، بحث قدم لمؤتمر تاريخ الملك عبد العزيز بالرياض صفحات ٢٠ وما بعدها .

(٣) الأعلام للزركلى : ٨/٢٦٨ طبعة دار العلم للملايين (ترجمة الزركلى لحياته) .

أصلا لكنه اعتذر عنها لظروف عمله، وأناب عنه صديقه وزميله الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى[1]. وبهذا يقدم لنا هيكل فصل القول فى تاريخ رحلة إبراهيم المازنى للحجاز .

وجدير بالتنويه أن كل ما أورده المازنى عن رحلة الحجاز فى ثنايا كتبه محصور فى عبارة قالها فى كتابه: (سبيل الحياة) حول الأمن فى الحجاز وعدم وجود سرقة [2] لأن السارق تقطع يده ، وذكر قصة عصاه التى سقطت فى الطريق بين مكة وجـدة وعطلت المرور ، وهى قصة كان قد أفاض فى الحديث عنها فى كتابه (رحلة الحجاز) .

أما الطبعات التى ظهرت لكتاب (رحلة الحجاز) فهى طبعتان : طبعة مطبعة فؤاد بعطفة عبد الحق السنباطى رقم ٢٠ بميدان الأوبرا بالقاهرة وهى تقع فى ١٦٦ صفحة من القطع المتوسط . وتوجد من الكتاب نسخـة فى مكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) تحت رقم ١٤٧٤٧ /١/٥٧ ، وهى التى اعتمدنا عليها . وليس فى الكتاب أى تاريخ يدل على تاريخ طبعه . ثم طبعة ثانية قامت بها الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م ضمن سلسلة أطلقت عليها :(مطبوعات الجديد).

الأمة العربية : الحاضر والمستقبل فى مرآة المازنى :

ثمة تساؤلات رائعة هى زفرات نفس مكلومة ، صدر بها المازنى كتابه (رحلة الحجاز) أجدنى مسوقا لكى أصدر بها هذا البحث الوجيز . . .

يقول الأديب المازنى :

ـ ماذا يرجى لهذه الأمة العربية التى ستشهد بعد أيام احتفالها بمبايعة ملكها؟

ـ هل تكر على العالم بنهضة جديدة ؟

ـ أو دع الكر ، فقد تكون مسافة ما بينها وبين العالم أطول من أن تعين عليه أو تجعل له محلا ، وسل : هل فى وسعها أن تشق طريقها إلى منزلة من منازل

---

(١) محمد حسين هيكل : فى منزل الوحى : ٣٣ مطبعة دار الكتب المصرية ، ط١ القاهرة ١٣٧ ، ويبدو لى أن الزركلى زار المملكة لسنتين متتاليتين ٢٩ ، ١٩٣٠م مع المازنى .وانظر : منصور الحازمى مرجع سابق : ٤٦ بمجلة الدارة .

(٢) انظر : سبيل الحياة ، طبع دار الشروق .

الحياة العزيزة؟ [1] .

ـ هل فى الأمة العربية مادة صالحة لما تتطلبه الحياة فى العصر الحاضر من الكفاح المر؟ . . . إن هذه الأمة تغالب طبيعة بلادها الماحلة وتصارع أهوال الصحراء ، فلم لاتستطيع أن تكافح المصاعب التى تحفها بها الأهواء العارضة ؟

ربما جنحت النفس إلى اليأس كلما تصورت بعد ما بين العرب وغيرهم من شعوب الأرض المتحضرة ، وتعذر اللحاق بهذه الشعوب التى أغذت السير قرونا ، وهم يحدون الإبل ويقتتلون كما كانوا يفعلون فى الجاهلية . بل كان اليأس يخامرنى كلما تخيلت الصحراء الساخنة التى يصارعونها ، وكنت أقــول لنفسى : (هل يتاح لأمة واحدة أن تنهض مرتين ؟ وأن يكون لها فى التاريخ مدنيتان عالميتان ؟

ألا تستنفد النهضة الأولى قواها وتعتصر حيويتها ولا تبقى منها إلا ما يتبقى من ألياف (القصب) الجافة بعد مصه أو اعتصاره) [2] .

بهذه التساؤلات العميقة والمخلصة استهل المازنى كتابه (رحلة الحجاز) الذى دونه عن رحلته إلى الحجاز قبيل أيام من الاحتفال بمبايعة الملك عبد العزيز ـ بعد تـوحيد الجزيـرة ـ ملكا على مملكة الحجاز ونجد وملحقاتهما التى تغطى مساحة كبرى من جزيرة العرب ، وتضم ـ فيما تضم من أرض وبلدان ـ أطيب الأرض وأطهر البلدان عندنا نحن المسلمين . . . !! .

ومع الإخلاص والألم الممزوج بالأمل اللذين نلمحهما فى كلام المازنى عبر هذه التساؤلات فإننا ـ مع ذلك ـ لا تفوتنا الإشارة إلى هذه اللفتة الكبيرة فى أسلوب المازنى حين يطلق على المملكة الناشئة (الأمة العربية) ، ويطلق على الملك عبد العزيز عبارة (ملكها) . . . أى ملك الأمة العربية .

إن المازنى يعرف بالتأكيد أن هناك أجزاء أخرى كثيرة من الأمة العربية . . . لكنه فى الوقت نفسه يشير إلى طبيعة الدور الذى ناطه القدر بالجزيرة العربية مهبط الوحى ، وأصل العرب ومهوى أفئدة المسلمين .

---

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى : رحلة الحجاز : طبع مطبعة فؤاد بالأوبرا بالقاهرة (بدون تاريخ) .
(٢) رحلة الحجاز : ٦ ، ٧ .

وهو — أيضا — يشير إلى عظم الدولة التى وحدها الملك عبد العزيز ، وإلى آماله المستقبلية المعقودة عليها . . .

إن استخدامه لهذا المصطلح (الأمة العربية) [1] مريدا به الحجاز ونجدا ، وما يتبعهما ضمن حدود الحكم السعودى ، لم يأت فصلا لمصر عن الجسم العربى كما حاول بعضهم، ومنهم طه حسين فى كتابه : (مستقبل الثقافة فى مصر) . . . أو فصلا للسعودية عن الأقطار العربية الأخرى ، وإنما كان الأمر تعبيرا عن اهتمام تتميز به الدولة السعودية الناشئة فى المجال العربى ، لم تكن تتناغم معه بالإيقاع نفسه كثير من الدول العربية التى كان أكثرها يرزح تحت نير الاستعمار ، وكانت الفكرة العربية الإسلامية خطرا يهدد الاستعمار، ويحاربه بكل قوة ، ولا يسمح ببروزه فى أكثر المجالات السياسية . . . وهذا بخلاف الأوضاع فى دولة الملك عبد العزيز التى كانت منذ أسست واضحة الانتماء للعروبة والإسلام ، ولم تكن تسمح بالمساومة فى هذا الانتماء . . .

وقد كان المصطلح الذى يلجأ إليه الإسلاميون وحماة العربية الإسلامية تعبيرا عن وعائهم الحضارى وانتمائهم التاريخى فى وجه الضغوط الاستعمارية . . . هو مصطلح (الشرق) فى مواجهة ضغوط الغرب وعملاء التغريب . . . ولهذا نجد المازنى بعد سطور من تساؤلاته السابقة يلفت نظرنا إلى انتمائه العربى الإسلامى وإلى وعيه الحضارى . . . ويقول لنا عن رحلته إلى أرض ابن سعود :

(وسرنى على الخصوص أن السفر إلى الحجاز لا إلى الغرب . وذلك أن الغرب يزور مصر ، ولو شئت لقلت : إنه يغزوها ، فلسنا نحتاج أن نزوره . أما الحجاز [2] فأمره مختلف جدا ، ولنحن خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربى أعمق، وصلتنا به أوثق، وارتباطنا به أمتن . وما أحسبنى أبالغ حين أقول : (إن مستقبل الشرق واحد وإن تفاوتت خطا أبنائه) ومن الجهل أن نشيح بوجوهنا عنه . ومن الخرق أن نتجاهله ، ومن البلادة أن ننسى أننا مرتبطون به وإن خفيت

---

(١) نستعمل تعبير الأمة مجاراة للمازنى فى إطلاقه هذا المصطلح على المملكة العربية السعودية إبان توحيدها وولادتها.

(٢) فى ذلك الوقت كانت الدولة التى وحدها الملك عبد العزيز يطلق عليها (مملكة الحجاز وسلطنة نجد) .

الخيوط ، ومن الغفلة أن نتوهم أن الرحيل لا يكون نافعا إلا إلى الغرب ، وأنه لا فائدة تكتسب من زيارة الشرق والاطلاع على أحواله) [1] .

بل إن إخلاص المازنى للفكرة الإسلامية العربية قد دفع به ــ وهو الكاتب الساخر الفذ ــ إلى أن يكشف عن نفسه حظا من التواضع وإنكار الذات لا يصل إليه إلا ذو نفس شفافة وأريحية عالية وولاء لأمته عظيم . . . إنه يتحدث عن رفاقه فى الرحلة إلى الحجاز فيقول : هذا أحمد زكى باشا أحدهم . وهو شيخ العروبة (. . .) ، وهذا آخر من المجاهدين فى سورية (نبيه بك العظمة) ، وهذا ثالث كان له فى حركة الاستقلال السورى دور أشبه بقصص السندباد البحرى (خير الدين الزركلى) ، فماذا عسى أن أكون بينهم ؟ أين يذهب الصعلوك بين الملوك ؟ هل فى مقدورى حين أفخر أن أدعى أنى أكثر من جندى صغير ؟ !! .

إن هذه الروح الزكية التى يبديها المازنى تجاه المجاهدين من أجل الإسلام والعروبة تدل على عمق ولائه وإخلاصه ، وإنها لتكشف لنا عن معدنه الأصيل ولاسيما إذا قسناها بعصرها ، وبالجو الذى قيلت فيه ، حين كان الشرق العربى الإسلامى تعصف به تيارات تمزيقية قوية ، ولم تكن الفكرة العربية قد استقرت فى النفوس . وحتى أكثر الذين أرادوا الترويج لها فى بعض المحافل كانوا يسيرون بها إلى الإيقاع بينها وبين محضنها الطبيعى الإسلامى الذى لا مجد لها بدونه ، ولا مكانة حضارية لها بعيدا عن رايته . . . !! .

ويجب أن نضيف أن هذه الروح الوثابة المنتمية التى ظهرت عند المازنى فى هذه الكلمات السابقة هى ــ فيما نعتقد ــ أثر من آثار هذا الأمل الذى أحياه صقر الجزيرة فى النفوس بعد أن رفع ــ عاليا ــ راية التوحيد والوحدة ، وقدم نموذجا للعمل الهادئ العاقل الذى يجمع بين الإيمان والعقل فى نسيج واحد .

المازنى .. وميلاد دولة التوحيد :

رست سفينة المازنى ــ إذا صح التعبير ــ فى مرفأ ينبع . . . فكانت مدينة ينبع هى أول مدينة نزل بها المازنى من أرض الدولة السعودية .

وقد رسم المازنى صورة المدينة بأسلوبه الرائع اللاذع . . . تحدث عن الصبيان

(١) انظر : رحلة الحجاز : ٨ .

الذين أقبلوا على السفينة يسبحون إليها كالسمك، ينادون ركابها أن يلقوا إليهم بالقروش ليلتقطوها فى البحر . . . [1] .

ــ ووصف المدينة بأنها صغيرة فقيرة ، وبها مساجد كثيرة . . . وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم ، وليس فيها زرع ولا ضرع ، وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب [2] .

ــ وسوق المدينة حارة ضيقة مسقفة على جانبيها الدكاكين . . . ولم يكن فى الدكاكين أحد لأنه وقت الصلاة . . . وكان الطريق غاصا بالأطفال يمشون وراءنا ويحفون بنا فى خرق ممزقة (هكذا ولدت دولة عبد العزيز !!) فتساءلت (أنا المازنى): ماذا يحمى هذه المتاجر أن يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء ؟ فقيل لى : إنه لا خوف منهم لأنه ما من أحد يجرؤ أن يسرق شيئا . . . !! [3] .

(وهذا ثمرة من ثمار تطبيق شريعة الإسلام حتى فى زمن الفقر إذ الفقر وحده ليس مبررا لارتكاب الجريمة ، والفقراء موجودون فى كل مجتمع . . .) .

ــ وفى ينبع بلدية ومكتب تلغراف لاسلكى ومدرسة أولية ابتدائية يديرها مصرى طبقا لمناهج التعليم المصرية [4] ، (ونلاحظ هنا عمق العلاقة المصرية السعودية فى أخطر قضية وهى التربية ، كما نلاحظ اتجاه الملك عبد العزيز نحو مصر . . .) .

وأيضا ثمة دليل آخر على التواصل الثقافى بين دولة الملك عبد العزيز ومصر يقدمه المازنى . . . وذلك فى قوله : (وفى ينبع وجدت صندوق الدنيا وكنت أحسبنى حططته عن عنقى فى مصر) [5] .

ثم ينتقل المازنى إلى الحديث عن مدينة جدة فيقول :

ــ وليس فى جدة فنادق ، وإنما ينزل الناس فى بيوت الأهالى . . . أما نحن

---

(١) رحلة الحجاز : ١٨ .

(٢) المكان السابق ، وقد أصبحت ينبع الآن إحدى أهم مدينتين صناعيتين فى المملكة .

(٣) رحلة الحجاز : ١٩ . (٤) المكان السابق : ٢١ .

(٥) المكان السابق وهو يقصد كتابه المشهور (صندوق الدنيا) .

(أى المازنى وصحبه) فكنا ضيوفا على الحكومة ، ولكن الأعيان تزاحموا علينا فقسمونا ثلاث فرق : واحدة ـ هى التى تعنينا ـ فى بيت الشيخ محمد نصيف وهو من وجوه جدة وكبار تجارها ، وأصله مصرى ، وله مكتبة خاصة هى أكبر مثيلاتها [١] فى الحجاز ، وفى بيته ـ ينزل على ما سمعنا ـ جلالة الملك عبد العزيز حين يكون فى جدة .

ـ والتوقيت المستعمل هو التوقيت الزوالى [٢]. . . والتليفون ـ أو الهاتف ـ كما يسمونه يحتاج إلى مهارة كبيرة كانت تنقصنا (أى تنقص المازنى وصحبه) ويحتاج إلى معارف لم نحط بها [٣] وذلك لبدائيته بالطبع إذ كانت المملكة حديثة العهد به !! .

ولجدة سور قديم لا خير فيه إذا كان المراد به الحماية . . .وكان هناك فى السور باب كبير للدخول والخروج . . . فلما جاءت الحكومة السعودية فتحت بوابتين وأقامت بينهما مخفرا يرقب الحركة . . . [٤] .

وفى السهل الواقع شرق جدة ثكنة للجنود واسعة رحيبة، ومركز للآسلكى وحظيرة للطيارات [٥] .

ـ ولم أر مقعدا أو سطيحا أو كسيحا لأنى لم أبغهم حيث يكونون .

ـ وقد استغربت أن أقضى ستة أيام فى الحجاز فلا تقع عينى على جنازة ميت ولا أسمع أن واحدا ملّ هذه العاجلة !!! [٦] .

وعلى فم البئر (بئر زمزم) سور من الحديد عال أقامته الحكومة لأن بعض الحجاج يحلو لهم أن يلقوا بأنفسهم فى البئر ليغرقوا ويموتوا شهداء على ظنهم!! .

ـ ووادى فاطمة واد ـ كما هو ظاهر بالبداهة ـ ولكنه غير ذى زرع كثير، ليس فيه نخيل ولا أعناب،وفيه موز وباذنجان وطماطم وليمون وملوخية وبامية [٧].

---

(١) رحلة الحجاز : ٤٠ .
(٢) انظر : ص ٤٦ .
(٣) ص ٥٢ .
(٤) رحلة الحجاز : ٥٨ .
(٥) المكان السابق: ٥٩ .
(٦) ص ٦٠ ، ٦١ (والمقصود أن المازنى لم يسمع نواحا لأنه بدعة. . . .) .
(٧) ص ٩٧ .

ـ وقد أنشأت الحكومة السعودية دارا لصنع الكسوة جلبت لها الأساتذة من الهند ليتولوا ذلك وليعلموا أبناء الحجاز، وقد زرنا هذه الدار ورأينا أنوالها ونماذج مما تخرج من الحرائر الموشاة والمطرزة بالقصب والفضة ومن السجاجيد وما إليها [١].

والمصريون هناك . . . دعامة من الدعامات البشرية التى اتكأت عليها الدولة فيمن اتكأت عليهم من الأجناس . . . وحدثنى (أى حدث المازنى) كبير فى الحكومة السعودية : أنه عنى بالبحث والتنقيب عن أجناس الأهالى فعرف نحو مائتى أسرة مصرية . . . ولكن الشبان المصريين هناك قليلون لأسباب كثيرة [٢] .

ـ إن الانفتاح الذى حققه الملك عبد العزيز على الشعوب العربية واستخلاصه لبعض العناصر كان ـ بالتأكيد ـ دعامة من دعامات حكمه ، وقد أثبت من خلاله أنه رجل العرب ، فضلا عن أنه رجل الجزيرة العربية الكبير .

وقد بذل الملك عبد العزيز والحكومة السعودية ما يستطيعون من جهد لتطوير البلاد ، فقد استوردت الحكومة ـ كما يقول المازنى ـ لينبع وحدة آلات لتقطير مياه البحر ، واشترت آلة لجدة تقطر فى اليوم مائة وخمسين طنا من الماء ، ومضت تجدد الآبار . واستدعت اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع المناسبة للآبار الارتوازية [٣] ، وأصلحت عين زبيدة ، وأعفت الحكومة كل الآلات المتخذة لاستنباط الماء من الجمارك ، وكذلك آلات الزراعة .

ولما كانت البلاد صحراء والمسافات واسعة ـ كما يقول المازنى ـ فقد اتخذت الحكومة السيارات وشجعت على اقتنائها . . . وقد دخل السعوديون الحجاز وليس فيه سوى سيارة واحدة . وفى الحجاز الآن ـ أى أثناء زيارة المازنى ـ ألف سيارة ومائتان ، والبريد ينقل بين جدة ومكة والمدينة على السيارات مرتين فى اليوم ، والشرطة يتخذونها للمرور والعسس . وقد بدأ استعمال السيارات بين الحجاز ونجد [٤] ، ولابد لذلك كله من الأمن وإلا فسد الأمر كله ، ومن هنا قسا ابن سعود فى أول الأمر فصار يقطع يد السارق [٥] فازدجر اللصوص وقطاع الطرق ،

---

(١) ص ١٣٩ ، وانظر : ص ٨٤ . (٢) ص ١٥٩ .
(٣) رحلة الحجاز : ١٦٢ . (٤) المكان السابق : ١٦٢ .
(٥) المكان السابق ، والقضية حكم شرعى وليست قسوة شخصية ، وهي عقوبة تزجر غير السارقين .

وأدب العشائر التى تسطو على الحجاج ، فساد الأمن وصار مضرب الأمثال بلا أقل مبالغة . وقد رأيت بعينى رأسى شواهد رائعة وأدلة مدهشة [1] .

ومن أجل طول المسافات وتقاذف الأبعاد، اتخذت الطيارات واللاَّسلكى فضلا عن التلغراف السلكى المعتاد ، وللاَّسلكى الآن أربعة عشر مركزا . وقد أنشأت الحكومة مركزا جديدا فى جزيرة دارين ، وهم ينشئون شبكة لاسلكية لها ثلاثة عشر مركزا ثابتا للتلغراف والتليفون اللاَّسلكى ، وذلك لوصل الرياض ومكة والمدينة وكل مركز فى الألوية والأقضية .

ومن أجل الحج واتقاءً لتفشى الأمراض ـــ والحديث للمازنى ـــ أنشؤوا فى مكة مستشفى ، فضلا عن المحطات الأخرى للراحة ، وأصلحوا الكرنتينة ، ورتبوا دوريات صحية ، وبنوا المظلات فى عرفات ومنى وجهزوها بالماء والثلج وأقاموا فى كل منها طبيبا وممرضا . والحكومة تلقح الناس ضد الجدرى ، وقد أنشأت معملا للحصول على مصول للجدرى والكوليرا والتيفوئيد . وأرسلت بعثات طبية للخارج . واستعارت طبيبا هولنديا وبدأت توسع مستشفى جدة .

وقد حقنا بمصلى الكوليرا والتيفوئيد قبل سفرنا من السويس ، ولكن هذه الأمراض لا أثر لها هناك . على الأقل فى هذه الأيام ، على أن مصلحة الصحة المصرية تعلن منذ سنوات أن الحج نظيف .

أما من حيث التعليم فللحجاز بعثة فى مصر مؤلفة من خمسة وعشرين تلميذا وطالبا ، فضلا عن البعثات الهندسية والطبية التى أشرنا إليها ، وقد أنشأت الحكومة مدارس أولية وابتدائية فى جدة ومكة والمدينة وينبع وغيرها ، ومدرستين ثانويتين فى مكة وأخرى فى المدينة ورابعة فى جدة ، وهذا غير المعهد السعودى فى مكة وغير مدرسة المطوفين التى أنشأتها ـــ كما أنشأنا فى مصر مدرسة الأدلاء والتراجمة ـــ وغير المدارس الدينية التى لا تعد مدارس حديثة .

وبهذه الطريقة العملية يحل ابن السعود مشاكل بلاده ، ويعمل على ترقيتها ، وقد تبدو الخطا قصيرة ، ولكنها مناسبة لحالة البلاد وتعداد أهلها ـــ والمال هو

---

(١) المكان السابق .

العقبة الكبرى، ولكن الحكومة لا تتعجل ولا تذهب إلى إثقال كاهل الناس بالضرائب من أجل ذلك . وشعارها ، أن العجلة من الشيطان [1] .

بقيت أهم قضية فى موضوع الدولة الجديدة . . . وقد وقف عندها المازنى وقفة مناسبة ، وأعطاها حقها من التحليل ، وكان صائبا فى وجهة نظره وفى تحليله. إنها قضية توطين البادية (الهجر) [2] التى نجح بها الملك عبد العزيز فى الخروج بقطاع كبير من قطاعات دولته ، كان يمثل عقبة فى طريق تحضير الدولة وتقدمها . . . ولقد أثبت الملك عبد العزيز بعلاجه لهذه القضية الكبيرة والقديمة أنه رجل دولة من طراز نادر . . . وكما يقول المازنى : فقد أدرك ابن سعود بفطرته الذكية أن هذه البداوة هى آفة الأمة العربية ، وعلمته التجارب أنهم لا يكادون يبصرون الجمال النافرة من قعقعة السلاح أو صوت الرصاص، حتى ينفضوا أيديهم من القتال ويذهبوا يعدون وراء الجمال وما إليها ليغنموها ، ومن أجل هذا كان يعتمد فى حروبه على الجنود النظاميين المدربين لا على البدو . وكان يقدم البدو فى المعارك ويضع جيشه النظامى وراءهم ليمنع البدو أن يفروا وراء المغانم والأسلاب قبل أن تنتهى المعركة ، أما فى السلم فهم عالة عليه وعلى حكومته ؛ لأنهم لايحسنون صناعة أو زراعة . وما دام للواحد منهم راحلة فهو ينطلق بها إلى حيث تنازعه نفسه ولا يطيق أن يستقر فى مكان .

ولهذا فكر فى تحضيرهم وإخراجهم من هذه البداوة فانتقى لهم المواقع التى يكون فيها الماء ، وحفر لهم الآبار وأوسعها أو أصلحها وألزمهم أن يبيعوا خيلهم أو جمالهم ، وأن يشتغلوا بالزراعة والصناعة ليتسنى له أن يجعل منهم أمة وأن ينظم أمورهم، وأن يقيم الحكم فيهم على قواعده الصحيحة وأن يعلمهم ويثقفهم.

---

(١) رحلة الحجاز : ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) فى قضية توطين البدو (الهجر) انظر : عبد الله الخرجى : الجهود الاجتماعية للملك عبد العزيز فى توطين البدو ، وانظر : حسن عبد القادر صالح : توطين البدو فى عهد الملك عبد العزيز ، وهما بحثان قدما لمؤتمر الملك عبد العزيز بالرياض ١٩٨٥ م /١٤٠٦هـ ، وقد حرص عبد العزيز على إقامة كل هجرة على بئر أو نبع ومزج القبائل ببعضها وزود كل هجرة بمعلم وفقيه وشجع على الزراعة ، وقد تحطم بذلك الإطار التقليدى البدوى وتحضرت البادية .

وتسمى هذه المواقع التى اختارها لهم وألزمهم الإقامة بها والعمل فيها (الهجر) بضم الهاء وفتح الجيم جمع هجرة ، وذلك أعظم عمل يباشره وأجل مهمة يزاولها .

وعلى هذا النحو العملى يحل ابن السعود مشاكله العديدة [1] .

وهكذا : عبر هذا التصوير عن شتى الجوانب المتصلة ببناء دولة آل سعود من خلال معايشة مباشرة ، وبقلم أديب مصرى محايد عرف بصراحته وبسخريته اللاذعة ، هكذا قدم لنا المازنى لوحة متعددة الألوان شاملة لعدد من اللقطات التى تشبه لقطات الرحالة ، والأدباء بكل ما يمتاز به هذا اللون من اللقطات من عفوية وصدق .

وهذا التصوير لجوانب هذه الدولة بقلم المازنى الأديب مجرد (شهادة) تهم المؤرخ لتوافر عناصر الصدق فيها ، حتى وإن كانت هناك حقائق كثيرة ذات أبعاد تاريخية وإحصائية مجردة يحسن المؤرخون والباحثون الوقوف عندها . . .

لكن المازنى لم يقصد إلى هذا . . . وإنما قصد أن يدلى بشهادته لوجه الله ويمضى ، وقد كانت له نظرات ثاقبة فى المقارنة بين أسلوب التطور فى هذه المملكة الناشئة (على يد الملك عبد العزيز) ، وبين أسلوب التطور فى مصر (على يد الملك فؤاد) حيث التركيز على الجوانب السياسية . . .

وقد شبه التطور السعودى بتطور الخطا الوطيدة المستمرة للسلحفاة ، وشبه التطور المصرى بتطور الأرنب ، وذكر ــ فى صراحة وشجاعة ــ أنه مقتنع بأن الأمور إذا ظلت كما هى فسوف تسبق السلحفاة الأرنب . . . [2] .

إننا هنا لسنا فى مقام الحكم على هذه النبوءة ومعرفة مدى صدقها ، ففى يقيننا أن مصر والسعودية كيان واحد ، وكل خير فى أيهما هو خير لكليهما ، وكل شر ــ لا قدر الله ــ هو شر للجميع . . . وإن ما يعنينا هو هذا الحكم الذكى ، وهذا الإعجاب الشديد من المازنى ، بالسياسة التى ينتهجها الملك عبد العزيز ، وينتهجها أبناؤه ورجاله الذين التقى بهم ، وعلى رأسهم الأمير فيصل ــ أمير الحجاز ــ رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) رحلة الحجاز : ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) رحلة الحجاز : الصفحة الأخيرة .

دعائم دولة الملك عبد العزيز كما صورها المازنى :

هذه الدولة المترامية الأطراف الفقيرة التى لم يكن لديها (بترول) ولا(زرع ولا ضرع) ــ كما يقول المازنى ــ والتى كانت قبائل كثيرة من أبنائها تعتمد على السلب وقطع الطرق على الناس حجيجا كانوا أو غير حجيج . . .

هذه الدولة ــ بهذه السعة ومع هذا الفقر فى بداية أمرها ــ كيف استطاعت أن تحكم أمرها ؟

وما الدعائم التى قامت عليها ، وكيف تغلبت على مشكلات البلاد ومؤامرات الدول الكبرى الطامعة ؟

وكيف صهرت الأجناس التى تعيش فى حجازها ومرافئها وكثير من مدنها فى بوتقة واحدة ؟

وكيف لا يجرؤ أطفالها ــ فضلا عن كبارها ــ على سرقة شىء مع أنهم يسبحون فى البحر ويغوصون بحثا عن قرش ؟

كيف اجتمع الفقر والعفاف؟

إن الدعائم الأساسية التى أقام عليها الملك عبد العزيز دولته هى السبب الأكبر الذى يقف وراء الإجابة على هذه التساؤلات . .

والمازنى نفسه أخذته الدهشة،وراح عبر رحلته يسأل نفسه ويبحث عن الإجابة ويصل إليها ، لتفسير هذه الظاهرة الغريبة الفريدة فى عصرنا الحديث . . .

ــ ما الدعائم التى قامت عليها هذه الدولة ؟

ــ لندع المازنى يضع أيدينا على هذه الدعائم بأسلوبه المتفرد . . .

ــ (فى ينبع) . . . استقبلنا ــ والحديث للمازنى ــ القائمقام الشيخ مصطفى الخطيب ، وهو كان عاملا عليها فى عهد الحسين فلم تنحه الحكومة السعودية ترفعا عن حماقات العزل والتأمر [1] .

و(فى جدة) . . . استقبلنا القائمقام الشيخ عبد الله رضا الزينلى على باب داره وهو شيخ بلغ التسعين (. . .) ولم أر فى حياتى (أى حياة المازنى !!)

(١) رحلة الحجاز : ١٩ .

وجها ناطقا بأريحية النفس والحب الذى يفيض على العالم كوجه هذا الرجل . . . وقد عشقناه وشغفنا به ولهجنا بذكره . . . فلما قال لنا (المستر فيلبى) : إن القلوب مجمعة على حبه واحترامه لم نستغرب ، وقد كان قائمقام فى عهد الحسين وابنه ، فلما جاء ابن سعود أقره فى منصبه كما أقر كثيرين غيره كراهة منه للتبديل والتغيير اللذين لا معنى لهما ولا دافع سوى الهوى [١].

ــ وهكذا يضع المازنى أيدينا على أول دعامة من دعائم سياسة الملك عبد العزيز بعد دعامة الإيمان والتوحيد . . . إنها دعامة (العقل) و(الحكمة) و(استخلاص الرجال الأكفاء) ،دون انفعالية هائجة جامحة، أو رغبة فى التغيير لمجرد التغيير ، أو لدافع الهوى ، أو لمجرد أنه لابد أن يكون لكل حكم رجاله ، بل المهم فى رأى الملك عبد العزيز المصلحة والكفاية والإخلاص للأمة ولدينها ، وللوطن ومصالحه العليا .

ــ ونترك المازنى يضع أيدينا على الدعامة الثانية . . .

يقول المازنى :

وفى ينبع عشرة آلاف نسمة ، وأقل من مائة جندى ، والحكومة كأبسط ما تكون ، ولا حاجز هناك بين الأمير وأحقر الأهالى ، وسلطان الحكومة ليس مستمدا من الخوف الذى تبعثه القوة ، بل من الاحترام والحب والتعاون ، وآية ذلك أن الناس صريحونْ مع حكامهم ، وأن الحكام لا يبدو عليهم تكلف ، ولا تكون الصراحة مع الخوف والتقية ، ولا الخوف مع البشر الذى ينضح به الوجه ولا يخفى فيه صدق السريرة ، ولا هذه البساطة المتبسمة مع القسوة والاستبداد .

ولم أسمع فى المرتين اللتين زرت فيهما ينبع ، أمرا يلقى ، أو كلمة ملق ودهان تقال . ولقد كان أمير ينبع يسر إلى الرجل من حرسه أن يطلب القهوة أو الشاى أو يدعو فلانا أو علانا أن يفسح الطريق ، وكنت أراه وهو يميل عليه كأنه يهمس فى أذنه نكتة أو كلمة سارة . ولم تأخذ عينى منظر قسوة واحد ، وكثيرا ما كانوا يفسحون لنا الطريق أو يصدون الناس ليوسعوا أمامنا ــ فى ينبع وفى جدة وفى الكندرة وفى مكة وفى وادى فاطمة ــ وكان الذين يتولون ذلك الجند، ولكن

(١) ص ٤٢ ــ ٤٥ .

بإشارة يد من غير أن يدفعوا فى صدور الناس أو يرفعوا فى وجوههم عصا أو يتجهموا لهم وهم يصنعون ذلك . وقد عدت من ينبع إلى الباخرة وأنا أحس أنى بدأت أفهم ، وقد زدت فهما لما زرت جدة ومكة ، ذلك أن الرعية راضية وأن الحاكم والمحكوم متعاونان (١) .

ــ إن البساطة المصحوبة بلون كبير من التسامح والود ، وإيثار السلم والرفق على العنف ، أركان فى سياسة الملك عبد العزيز ، وهى أمور سردها المازنى ووقف عندها ، لكنه لم يحسن فى بعض الأحيان تفسيرها ، وإن كان قد أحسن وأجاد فى بعضها الآخر . . .

يقول المازنى :

لقد أخطأ سادن الكعبة فى حضرة الأمير فيصل ودعا بالنصر والتأييد ــ عن جهل منه ــ للدولة العثمانية . . . وظن المازنى أن رأس السادن ستطير ، ولكنه فوجئ بأن الأمر عادى جدا (٢) ، وأنه صحح دون أن يترك أية حساسية . . !! .

ويتعجب المازنى ، وهو يرى السعوديين لا يراعون فى الجلوس إلى الموائد ترتيبا معيناً، فكان من شاء يجلس حيث يشاء حتى لا يشعر أن غيره مفضل عليه مقرب دونه أو مختص بإيثار (٣) .

والسائق صابر ــ تعجب المازنى منه أيضا ــ ذلك لأنه شاب مصرى يتعامل مع الجميع بندِّية كاملة ، حتى إنه ــ مع وجود إذن رسمى للوفد بالسعى بين الصفا والمروة فى سيارة (٤) رفض لهم ذلك وقال لهم : إن هذا ليس من الإنسانية فى شىء ، وأنه لن يسوق السيارة . . . وصابر السائق المصرى يتعامل مع الجميع ــ كما يقول المازنى ــ بجرأة وشجاعة واستقلال فى الرأى (وقد كان يخاطب كبراء الحجاز فى جدة ومكة وفى الطريق بينهما مخاطبة الند للند . . . ويناقشهم ويحاجهم ويعترض على بعض ما يقولون ، ويدلى بالصواب فى رأيه كأنه ند لهم ، وكانوا هم يتقبلون منه ذلك ولا يرون فيه شذوذا ، ولا يبدو عليهم أثر

---

(١) رحلة الحجاز : ٢٤ .

(٢) رحلة الحجاز : ١٠٠ ، ١٠١ .

(٣) رحلة الحجاز : ٤٩ .

(٤) كان ذلك ممكنا فى ذلك الوقت .

الدهشة والامتعاض) [1] .

وهذه البساطة الشديدة وإيثار الحلم والرفق فسَّرهما المازنى خطأ فى بعض المواقف ، مثل تفسيره لمعاملة الدولة لأهل جدة بأن فيها تدليلا ، حيث يوجد فى جدة من مظاهر الترف والنعمة ما لا يوجد فى مكة ، وأن الحكومة توليهم تسامحا وتطلق لهم فى أمور تتشدد فيها فى مكة [2] . . . والأمر ليس كذلك إطلاقا فلا توجد حكومة – فضلا عن حكومة عبد العزيز – تؤثر مدينة – بالجملة – على مدينة – بل الأمر يتعلق بطبيعة مكة وبمكانتها الإسلامية، وطبيعة جدة الساحلية والتجارية ، ثم إن الظروف الحضارية لكل مدينة قد تـوجب لونا خاصا من المعاملة ، وجدة كانت تحتشد فيها القنصليات والجاليات الأجنبية فضلا عن أنها مدينة تجارية عالمية .

لكن المازنى – مع ذلك – نجح نجاحا كبيرا فى وضع يديه على الدعائم الصحيحة للدولة السعودية . . .

وبالإضافة إلى ما ألمحنا إليه من صور البساطة وطبيعة العلاقة وتلقائيتها بين الحاكم والمحكوم ، والحلم وإيثار السلم ، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وعدم الرغبة فى الأساليب العنيفة أو التغيير لمجرد التغيير . . . بالإضافة إلى كل هذا ، يقدم لنا المازنى بعض آرائه فى أحكام عامة إجمالية يلخص بها رأيه فى المنهج الذى تنتهجه الدولة الجديدة، موضحا بعض الأحوال الاقتصادية التى كانت تمر بها الدولة إبان نشأتها . . . فقال :

(إن الأغنياء هناك لا يدعون الفقر، ولا يكتمون مالهم وإن كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البذخ . والتجارة سوقها رائجة مع الشرق والغرب والأحاديث صريحة والألسنة طليقة ، وفى هذا دلالة على الاطمئنان .

إن الحكومة فى آخر العام قد تقفر خزائنها فتحتاج إلى المال فتقترض من الأعيان ؛ حتى إذا جاء موسم الحج ردت إليهم ما أقرضوها بلا ربا) .

(إن الناس يقعون على الشىء فى الطريق فلا يقربونه أبدا ، بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا إلى طريق آخر غير الذى فيه هذا الشىء المطروح حتى يمر

(١) رحلة الحجاز : ٨٠ ، ٨١ .
(٢) رحلة الحجاز : ١١٠ ، ١١١ .

شرطى فيحمله ويبحث عن صاحبه أو يمروا هم بالشرطى فيبلغوه ، وإذا لم يقعوا على صاحبه نشروا فى (أم القرى) إعلانا تحت عنوان لقطات)[1] .

ــ وأخيرا نقتطف من (لقطات) المازنى قوله :

(لقد شعرنا من أول لحظة أننا فى بلاد مستقلة ، فلا أجنبى هناك ولا نفوذ ولا سلطان إلا لأبناء البلد) [2] .

* * *

لقد نجح المازنى ــ الكاتب والروائى الساخر حتى من نفسه ــ فى أن يرتفع إلى مستوى الحدث الذى عاشه ، وأن يرصد بعقل ثاقب أركان تلك الظاهرة الجديدة ،التى يمثلها حكم إسلامى يقوم على الفطرة النقية ، وعلى الشريعة الإسلامية العادلة ، ويحاول بطله الكبير عبد العزيز ــ رحمه الله ــ أن يشق لهذا الكيان طريقا وسط عالم جديد لا مكان فيه للمنهزمين من داخلهم . . . ولا ريادة فيه إلا للمستقلين الأقوياء الذين يفهمون أبعاد الصراع الحضارى العالمى . . . ويجيدون السباحة فى مياهه الوعرة . . .ويحافظون ــ وهم سائرون فى الطريق الطويل ــ على ذاتهم وأصالتهم وأهدافهم . . !! .

ورحم الله المازنى . . . الأديب المصرى العربى المسلم !! .

ورحم الله الملك عبد العزيز ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء !! .

(١ ، ٢) رحلة الحجاز : ٦٨ .

أهم مراجع البحث

ـ إبراهيم عبد القادر المازنى: **رحلة الحجاز** ، طبع مطبعة فؤاد ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ـ إبراهيم عبد القادر المازنى : **سبيل الحياة** ، طبع دار الشروق .

ـ أحمد حسن الزيات : **وحى الرسالة** ، المجلد الثالث ، ط٢ ،مكتبة نهضة مصر ، القاهرة .

ـ أنور الجندى : **من أعلام الفكر الحديث** ، الدار القومية ، مصر سنة ١٩٦٤م .

ـ خير الدين الزركلى : **الأعلام** ، ترجمة إبراهيم بن محمد بن عبد القادر المازنى .

ـ سعود الدايل : **السياسة الخارجية للملك عبد العزيز** ،بحث نشر بمؤتمر تاريخ الملك عبد العزيز بالرياض ، سنة ١٩٨٥ م .

ـ عبد الرحيم عبد الرحمن : **أثر قوة إرادة الملك عبد العزيز فى تكوين المملكة العربية السعودية** ،بحث مقدم لمؤتمر تاريخ الملك عبد العزيز بالرياض سنة ١٩٨٥م.

ـ على عبده بركات : **اعترافات أدبائنا فى سيرهم الذاتية** ، ط ١ ، سنة ١٤٠٢ هـ ، مطبوعات تهامة ، جدة .

ـ محمد جلال كشك: **السعوديون والحل الإسلامى** ، ط ٣ ، لندن ، سنة ١٩٨٢ م.

ـ محمد حسين هيكل : **فى منزل الوحى** ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

الفهرس

رقم الإيداع : ٤١٧٣/ ١٩٩٤م

I.S.B.N : 977-255-100-4

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٢١ - ص.ب ٢٣٠

تلكس ٢٤٠٠٤ DWFA UN